

الرواية الحائزة على جائزة افضل رواية فرنسية في قوائم "لير" الفرنسية

حارس الشانزليزيه

للكاتب جوز

ترجمة :دينا محمد معوض

مقدمة الناشر

"حارس الشانزليزيه" – عنوانها الأصلي "وقوف مدفوع الأجر" – هي روايته الأولى، والتي حصلت على جائزة مختارات بائعي الكتب عام 2014، وجائزة أفضل رواية فرنسية في قوائم مجلة "لير" الأدبية الفرنسية.

نالت الرواية شهرتها بسبب أسلوب المؤلف غير التقليدي في سردها، فهي ليست رواية أكثر منها سرد لمواقف منفردة، تتجمع معًا لتشكِّل لوحة يريد المؤلف أن يراها قارؤه كما يراها هو، ولكي يرينا كذلك شخصية بطله الساخرة وعنفوانه في الحكي وانتقاد كل ما يراه أمامه والسخرية منه.

جاء عنوان الرواية الأصلي "وقوف مدفوع الأجر" ليمثِّل وظيفة حارس الأمن؛ أن يظل واقفًا لعدة ساعات حارسًا للمكان مقابل أجر ما. وفيها يقدم لنا "جوز"، مؤلف هذه الرواية، نظرة عن التنميط الذي يعاني منه مجتمع المهاجرين في فرنسا، وخصوصًا المهاجرين من الأفارقة.. فأن تكون أسود يعني أن الوظيفة الوحيدة المناسبة لك هي أن تقف حارسًا للمتاجر وغيرها.

إنها انتقاد واضح وصريح للعنصرية التي لا تُقال صراحة في فرنسا، ويحكمها نظرية "باريس سان جيرمان" والتي يشرحها المؤلف في روايته لاحقًا. تتكون النظرية من ثلاثة عناصر؛ لون البشرة، الوضع الاجتماعي، والموقع الجغرافي.

"أوسيري"، بطل هذه الرواية، والراوي الذي نرى كل شيء من خلاله، ينتقد كل شيء، وحتى ينتقد نفسه والأفارقة الذين تخلوا عن هويتهم في ذلك المجتمع الاستهلاكي المادي المعولم.

من خلال "أوسيري"، يرسم لنا "جوز" لوحة إيقاعية للمجتمع الفرنسي، يمكن للمرء أن يتخيلها بسهولة على خشبة المسرح؛ فهو يوثق لتاريخ الهجرة الإفريقية في فرنسا من خلال ثلاثة مشاهد: المشهد الأول الذي يتزامن مع أزمة النفط في السبعينيات، ثم الحرب الباردة، وسنوات الرئيس "جيسكار"، وإغلاق الحدود، وبداية النهاية لقانون لم الشمل. في المشهد الثاني، نرى العصر الذهبي، كما يسميه "أوسيري"، وهو عندما جاء مهاجرًا إلى فرنسا ويمتد من عام 1990 وحتى عام 2000، وفيه يكتشف كيف أن الأفارقة مثله اقتُلعوا من جذورهم وكينونتهم لكي يتأقلموا مع المجتمع الفرنسي. في المشهد الثالث والأخير، أو سنوات الرصاص كما يدعوها، فهي التي أعقبت 2001، فترة الجنون الأمنية التي تبعت أحداث سبتمبر وانهيار برجي التجارة العالمية.

إن هذه رواية تمزج بين السخرية والتاريخ.. تاريخ الهجرة الإفريقية والمجتمع الستهلاكي، وتحاول إنقاذ الإنسانية من السطحية والمادية وإعادتها إلى طبيعتها.

يُعتبر الكتاب سرد لكل ما رآه وسمعه المؤلف خلال عمله في محل "كامايو" و"سيفورا " بالشانزليزيه. سخرية لاذعة ونظره متعمقة لكل جوانب المجتمع الاستهلاكي من خلال شخصيات وأماكن يصفها المؤلف بدقة تضاهي الواقع. وعلى الرغم من الحس الفكاهي الطاغي، فإن الكتاب يتناول بكل جدية الظروف التي يعيش فيها المهاجرون الأفارقة وصعوبة اندماجهم في المجتمع الفرنسي. انتقد المؤلف كل المجتمعات الأفريقية وغير الأفريقية وكل الطبقات، فالكل مستهدف في هذه الصورة الثرية بالتفاصيل الواقعية التي تعكس ما شاهده ويشاهده كل الحراس عند وقوفهم اللا متناهي الممل أمام المتاجر والمحال الكبيرة والصغيرة على حد سواء.

"جوز" هو تصغير لاسم "جوزورو"، وهو طريقة نطق قديمة لسيارة الـ"جباكا" المتهالكة في "أبيدجان"، وهو الاسم الذي اختاره المؤلف لنفسه.

حصل على العديد من الجوائز في فرنسا عام 2014 وعدة جوائز في "أبيدجان". وهو مصوِّر محترف، وصانع أفلام وثائقية، ومدير لجريدة اقتصادية ساخرة في الكوتديفوار. هو أيضًا كاتب سيناريو، كتب نص فيلم عن هجرة شباب الكوتديفوار تحت عنوان "ما وراء المحيط".

ما يلي ما هو إلا محض خيال

أي تشابه مع الأشخاص الحقيقية ليس من قبيل المصادفة البحتة..

إلى سيلين

"سيفورا"، ابنة أخي العزيزة

العطر المثالي للمكان

ضحك آرموند، والدك

من هذه الكلمات، بلغت ضحكاته عنان الجنان

تمهيد

المعينون حديثًا.. إن طابور الرجال ذوي البشرة السمراء الذين يصعدون هذه السلالم الضيقة لا يختلف كثيرًا عن فرقة جديدة تحاول تسلق قمة جبل "k2"، أصعب القمم تسلقًا من بين قمم سلسلة الهيمالايا. يصعدون في إيقاع صوتٍ واحدٍ؛ صوت خطواتهم على السُلَّم المرتفع الذي يجعل الركبتين ترتفعان إلى أعلى. يتكون الطابق الواحد من تسع سلّمات تتبعها بسطة ثم تسع سلّمات إضافية، لكن السجادة الحمراء السميكة تكتم صوت الأقدام. وُضعت السجادة خصوصًا في منتصف الممر الضيق كي لا تسمح بمرور سوى رجلين جنبًا إلى جنبًا. تتباعد المسافات بين أفراد الطابور مع الإرهاق الذي يصيبهم بعد كل طابق ويرتفع صوت لهاث بعضهم من وقت إلى آخر. عندما يصلون إلى الطابق السادس، يضغط أول متصدري الطابور على زر كبير متصل بهاتف داخلي تعلوه كاميرا مراقبة. إن المكتب الكبير الذي ينتظر فيه الجميع والعرق يغطيهم ليس سوى استراحة ليس فيها أي حواجز تحجب عنهم المكان المحيط بهم. وعلى مرمى العين يمكن رؤية غرفة زجاجية عليها لافتة لم يُكتب عليها من الأحرف سوى "الميم والعين" واللذين يحددان مجال سيطرة الذكر المهيمن ويشيران إلى المدير العام. يشبه مكتبه جزيرة يحدها الزجاج ومنها يطل على الأسطح الباريسية من حوله.

توزيع الاستمارات.. توظف الشركة هنا حراس أمن جددًا بنهمٍ منقطع النظير. حصلت شركة protect-75على عقود تأمين لعدة علامات تجارية متنوعة في وسط باريس، وعليه فإن الشركة تحتاج إلى تعيين عدد كبير من الأيدي العاملة بشكل عاجل. انتشر الخبر في الأوساط الأفريقية كما تنتشر النار في هشيم أولاد الكونغو، وكوت ديفوار، ومالي، وغينيا، وبنين، والسنغال، وآخرين.

من أول نظرة، أستطيع تحديد الجنسيات المختلفة بسهولة من خلال أنماط الملابس المختلفة. قميص البولو والسروال الجينز من طراز "ليفايس 501" لطالما مَيَّز الإيفواريين، والسترة الجلدية السوداء الكبيرة للماليين، والقميص المخطط المبطن بالفرو عند البطن لأبناء بنين و"توجو"، والأحذية الجلدية الملمعة جيدًا للكاميرونيين، والألوان المختلفة التي تميز أبناء "برازافيل"، والملابس الخارجة عن المألوف علامة على حضور أبناء الكونغو الآخرين، أحفاد "ستانليفيل". وإن لم تستطع العين وحدها تحديد الجنسيات المختلفة، هنا تتدخل الأذن، إذ أن الأفريقي يفضحه فمه. إن اللكنات التي تؤثر في اللغة الفرنسية هي أيضًا علامات تربط المتحدث بموطنه الأصلي، فهي جلية ككروموسوم إضافي يحدد المنغوليَّ، أو ورمٍ خبيث يكشف عن وجود السرطان. وعليه فإن أبناء الكونغو يتحدثون الفرنسية بطبقة صوت مميزة، وكأنهم يضفون أبعادًا صوتية جديدة على الكلمات، أما أبناء الكاميرون فهم عادة ما يدندنون وهم يتحدثون، والسنيغاليون يتحدثون بطبقة صوتية واحدة وكأنهم يرددون نصًّا دينيًّا، وأبناء

كوت ديفوار يقطِّعون الكلام وكأن الحديث يرتج معهم، أما أبناء بنين و"توجو" فإن طبقة صوتهم أثناء الحديث تشبه التذبذبات المتقطعة، أمَّا الماليون فهم لا يتقنون سوى نسخة مبسطة من اللغة الفرنسية.

يُخرج الجميع الأوراق المطلوبة من أجل مقابلة التعيين، ومنها وثائق إثبات الشخصية، والسيرة الذاتية الكلاسيكية، وبيان التصريح الإداري للعمل في مهن التأمين والحراسة. هنا، يُعامل هذا التصريح وكأنه شهادة ما. لا يجب أن ننسى أيضًا خطاب التقديم الشهير الذي لا يحتوي إلا على عبارات مثل: "أتمنى الاشتراك في فريق طبيعته ديناميكية"، أو "أتمنى الالتحاق بمشروع مهني طموح"، أو "أطمح إلى تطبيق كل من مهاراتي الأكاديمية وكفاءاتي الأخرى"، أو "تفضَّل بقبول"، أو "فائق امتناني"، أو "إليك احترامي وتقديري الفائق"، وغيرها من ديباجات الاحترام المهنية الفارغة. كل تلك الديباجات التي تشبه أحاديث العصور الوسطى والعبارات الواهية التي تعكس تطلعات مصطنعة تدفعك إلى الابتسام في مثل هذا المكان وفي مثل هذه الظروف. أما التطلعات والدوافع فكلها متوفرة لدى الجميع هنا حتى إن اختلفت بين ساكن القفص الزجاجي ومن هم خارجه. فالذكر المهيمن في القفص المُقدس يتطلع إلى الحصول على أكبر عمالة ممكنة بأي طريقة متاحة، ومن المحتمل أن تكون التعيينات الزائدة عن الحاجة وسيلة للوصول إلى هذا الهدف. وأفراد طاقم التسلق في ممر السلم يطمحون إلى الخروج من حيز البطالة اللئيم أو حيز التعيينات غير المستقرة. وبالنظر إلى الإمكانيات المتاحة فإن العمل حارس أمن سيتيح الوصول إلى هذا الهدف نسبيًّا. أما عن الخلفية الأكاديمية والخبرات العملية فهي لا تشغل حيز اهتمام كبير هنا، على عكس الخلفيات الإدارية، والموقف القانوني، والبنية الجسدية التي من المفترض أن تكون مناسبة. آه من البنية الجسدية.

إن السود أقوياء البنية، وكبار الحجم، وموفورو العضلات، ثم إنهم مطيعون ومخيفون. من المستحيل عدم التفكير في هذه المجموعة من الكليشيهات عن الإنسان المتوحش الطيب، الذي من الممكن أن تعود صفاته البدائية للظهور في أي لحظة في مخيلة كل من البيض المسؤولين عن التجنيد، وأيضًا في مخيلة كل من السود الذين جاءوا لاستغلال هذه الكليشيهات لمصلحتهم. من المستحيل كذلك ألا يفكر السود في استغلال هذه الكليشيهات التافهة من أجل نيل مرادهم. لكن هذه ليست قصتنا، ففي هذا الصباح، لا أحد يهتم بهذه الأشياء، فهذا موضوع آخر ليوم آخر، إضافة إلى أن في الفريق المسؤول عن التعيين بعض السود.

الجو هادئ وخالٍ من التوتر. يحاول أحدهم إلقاء بعض التلميحات البذيئة عن ثديي إحدى المساعدات المسؤولات عن توزيع نماذج التعيين. يهتم كل فرد بملء نموذجه الخاص بدرجات متفاوتة من التركيز. يملؤون بيانات الاسم، واسم العائلة، والجنس، وتاريخ ومكان الميلاد، والحالة الاجتماعية، ورقم التأمين

الاجتماعي، ومدخلات أخرى نعرفها جميعًا. أؤكد لكم أن هذا النشاط سيكون الاختبار الفكري الأكثر تعقيدًا في هذا اليوم. كان البعض يسترق النظرات إلى نسخة زميله. إن هذا النمط إرث من التقاليد المدرسية وإسقاط نفسي على نقص الثقة لدى البعض. فبطبيعة الحال، عندما يظل المرء مدة طويلة في شباك البطالة، يصبح فاقدًا الثقة.

يتبادل كل من بمجموعة الفتيان ذوي البشرة السمراء كل أنواع الأوراق المطلوبة للوظيفة مع الموظفة ذات الثديين الكبيرين. بعد أن ملأ ووقع الجميع على بعض الأوراق البيضاء التي لم يكن بها سوى بعض العبارات الضمنية التي يدير فحواها العلاقة بين من سيصبح قريبًا عاطلًا سابقًا ومن سيصبح قريبًا أيضًا رئيسه في العمل، يُقدَّم إلى كل عضو من أعضاء المجموعة كيسًا فيه بنطلون أسود وسترة سوداء وربطة عنق سوداء وقميص أسود أو أبيض، وجدول يحدد أوقات العمل ومواقعه الشهرية. أمَّا العقود فهي دائمة؛ فمن يدخلون هذه المكاتب عاطلين يخرجون منها حراس أمن. من لديهم الخبرة في تلك المهنة يعلمون ما ينتظرهم في الأيام القادمة: الوقوف طوال اليوم في متجر ما وتكرار كل المحاولات الممكنة لقتل الملل كل يوم حتى موعد تسلم الراتب في آخر الشهر. هكذا هم.. مأجورون للوقوف. صدقوني، إن الأمر أصعب مما يبدو عليه. كي لا يفقد المرء عقله في هذه الوظيفة؛ ومن أجل الحفاظ عليها؛ ومن أجل عدم الوقوع في التساهل العاطل أو الغيرة البلهاء أو العدوانية الفظة؛ فعلى المتقدم لهذه الوظيفة شيئان: يجب أن يعرف كيف يفرغ رأسه من أي اعتبارات معقدة أو ردود فعل مركبة، أو يحصل على حياة شخصية مسلية إلى أقصى درجة. ودائمًا يُعدُّ التظاهر بالبلاهة خيارًا جيدًا. وهكذا، فلكل شخص أسلوبه ولكل شخص أهدافه وكل شخص سينزل من الطوابق الستة بطريقته الخاصة.

في حي "لا شابيل"

هناك، ستجد الحانة التابعة لأحد أبناء القبائل من الجزائر، ومتجر ملابس يملكه صيني من "نانجينج"، ثم مخبز السيدة التونسية، ومتجر الأجهزة الصغيرة التابع لرجل باكستاني، وبعده متجر الجواهر ومالكه الهندي، ثم حانة أخرى قبائلية لكن السنيغاليون هم من يترددون عليها، ثم مركزًا للاتصالات يملكه رجل من "التاميل"، ويليه متجر أدوات صغير آخر لسيدة باكستانية، وبعده محل جزارة جزائري، ومتجر ملابس آخر صيني، إلا أن مالكه من "ونجو" هذه المرة، ويليه دكان للبضائع المستعملة يملكه رجل مغربي، ثم حانة للشرب والدخان يملكها رجل صيني من "ونجو" أيضًا، ثم مطعم تركي، وعليك ألا تنسى أن تفرق بينه وبين جاره مطعم الساندويتشات الكردي، ثم جزارة جزائرية أخرى، ومتجر بلقاني، ثم بقالات مغربية تتخصص في المطبخ الأفريقي والكاريبي، ثم حانة قبائلية أخرى، ثم ممر صغير به البضائع المستعملة لرجل يوغوسلافي بغيض، ويليه متجر إلكترونيات كوري، وبعده إسكافي من

"مالي"، ومتجر للأدوات الصغيرة من "تاميلي"، وبقالة مغربية أخرى، ثم حانة قبائلية جديدة ولكن هذه المرة متخصصة في المشروبات الكحولية التي قد تقضي عليك، ثم بقالة أفريقية تابعة لرجل كوري، ويليه كازينو سري كرواتي، ومصفف شعر تاميلي، ثم كوافير جزائري، ثم كوافير لامرأة أفريقية من كوت ديفوار، وبقالة كاميرونية، ثم المتجر الكاريبي، ثم الصيدلية اليهودية.

وهكذا فإن المشي في شارع "فوبور دي تومبل" – شارع ضاحية المعبد - يشبه رحلة في بابل القديمة والوصول إلى برج بابل العظيم الذي ستسقطه هذه المرة ألعاب باريس النارية في "بالفيل".

أيعقل أن يكون كنز فرسان المعبد العظماء هو هذا التنوع الثقافي الناتج عن اختلاط كل هذه الأصول في ضاحية تحولت إلى مقر لهم؟ أما في محيط مترو "جونكور" حيث شارع "بارمونتييه"، فالمناخ أكثر باريسية وتجانسًا، وبالنظر إلى المعايير الغربية نجده أكثر "طبيعية" عندما نرى حانات "بوبو" الفرنسية، وبنوك الادخار، والمخابز ذات الطراز القديم التي تقدم الخبز الفرنسي الحقيقي، وبنك "كريدي ليونيه"، ومطاعم البيتزا الإيطالية، بنك "كريدي أجريكول"، وبائعي أجهزة أبل، ومكتبة للكتب وأدوات الكتابة، وبنك "بي إن بي باريبا" الشهير، والمطعم الواقع بين "ميشلين" و"هاشِت" و"كريدي موتويل" وبنك "سوسيتي جينيرال"، والمدرسة التي تحمل اسم أحد المتوفين ثم بنك "HSBC"، ومتجر الأحذية الفخم، وفرع آخر من "كريدي ليونيه"، ثم مدرستين ابتدائيتين معلق بهما قائمة بأسماء بعض الأطفال الذين رُحِّلوا خلال الحرب، ثم حمام السباحة العام. وإذا تابعنا الوضع من ناحية الشرق، سنصل أخيرًا إلى مبنى البلدية المُذَهَّب التابع للدائرة الحادية عشر في باريس، وسنجد العلم ذا الألوان الثلاثة الذي يعلو سطحه الإردواز الأسود مؤكدًا أن هذه البناية تنتمي إلى الجمهورية الفرنسية.

ومن هنا، يبدو وكأن وصول "أوسيري" إلى متجر "كامايو" في شارع ضاحية "سانت أنتوان" وكأنه رحلة عبر الزمن.

منذ وقت وجودهما في "لا شابيل"، تجوَّل هو و"كاسوم" في كل شوارع الحي بشكل ممنهج كما لو كانا عالمين يراقبان حركة الأرض. هذا الجزء من الدائرة الحادية عشر، وصولًا إلى المؤخرات الصغيرة ذهبية اللون الخاصة بتمثال الملاك الموجود في ميدان "الباستيل" - فضلًا عن "الشانزليزيه" – كل هذا الجزء يُعتبر أحد أكبر أماكن الترفيه في باريس. به الكثير من الحانات الصاخبة، والحانات التي لها طابع خاص، والمطاعم الغريبة من مختلف أرجاء العالم، والصالات، والنوادي الخاصة، والملاهي الليلية، والحانات ذات صالات رقص، وصالات الحفلات الموسيقية الصغيرة، إلخ. تجذب هذه الحانات الكثير من الزوار كل مساء، لا سيَّما في عطلة نهاية الأسبوع. ويجمع هذا الحي، وبطراز أقل إبهارًا، العدد الأكبر من محال الملابس التي يملكها الصينيون. يعمل جيوش من الصينيين، في أماكن سيئة

التهوية، في غرف قليلة الإضاءة، وساحات خلفية مظلمة، وفناءات، وقاعات تحولت لغرض العمل إلى قاعات مجهزة.. أغلبهم يعملون دون أوراق رسمية، ليلًا نهارًا لتسديد الديون لمهربيهم. وباستثناء عيد رأس السنة الصينية، فهم لا يعرفون طعم الراحة أو الإجازات. يكسب أرباب العمل الصينيين كثيرًا من وراء هؤلاء الموظفين المثاليين للغاية. كانت تكلفة إنتاج الملابس المتماشية مع الموضة منخفضة في بلد ترتفع فيه مستويات المعيشة والاستهلاك. في باريس، وجود الكثير من العمال المهرة، برواتب متدنية، غير منتمين إلى نقابات ويعملون طواعية في السخرة، يُسمى إعادة توطين محلي. يا له من إنجاز رأسمالي كبير بالنسبة إلى الصينيين!

وهكذا، كان عربيدو حي " الباستيل" هم القلائل المتميزون في فرنسا الذين من حقهم تقيؤ ما شربوه من الكحول أمام الأبواب الفخمة المسقوفة والتي مر بها العمال صانعو الثياب التي تفوح منها رائحة الدخان والتي تحركوا ورقصوا وتعرقوا فيها طوال الليل.

كان مشهد السكارى المتعبين في الصباح الباكر، خاصة يوم الأحد، من أكثر اللحظات التي يتشاركها "كاسوم" و"أوسيري" معًا ويقدرانها. كانا مضطرين إلى ترك الغرفة لـ"زاندرو"، الشخص الذي يتعرَّف جيدًا الوجوه في "لا شابيل دي لومبارد"، وهو أحد الملاهي الليلية الأكثر رواجًا في "الباستيل". كانا مضطرين إلى أن يستيقظا كل فجر يوم جديد لترك الإستوديو الصغير الذي يقع مباشرة فوق ملهي "لا شابيل" ويحمل بطبيعة الحال الاسم نفسه. وبما أنهما لا يعملان كل يوم ولا يعرفان إلى أين سيذهبان كل يوم في هذا الوقت المبكر من الصباح، فكانا يقضيان بقية الليل مع آخر الساهرين في الملهى. كان "كاسوم" و"أوسيري" مفعمين بالنشاط ومتيقظين. أمَّا الساهرون المتأخرون، فكانوا يشعرون بالتعب بسبب الخمر أو المخدرات. كان "كاسوم"، كطفل عاش قديمًا في حي "تراشفيل"، لا يمكنه أن يمنع نفسه عن التفكير في أن هؤلاء المتأنقين المتغندرين ما هم إلا فريسة سهلة لسرقة قطع الجواهر أو النقود منهم. فتجربته في "أبيدجان" كانت كبيرة في هذا الأمر. لكن يبدو أن "أوسيري" كان يخمِّن كل أفكاره، وكانت نظرة منه تعيده إلى صوابه. كثيرًا ما ردَّد على مسامعه: "دع عمل الصعاليك للصعاليك"، فيكتفي "كاسوم" بالصفوف الأولى للمشاهدة والسخرية من السيرك الدائر بين الباريسيين وقاطني الأحياء العشوائية في نهاية السهرة. حتى عندما ألقت تلك الفتاة الثملة تمامًا بنفسها عليه صارخة بالإنجليزية:

- أريدك أن تنام معي، لتنم معي!

على الرغم مما قالته، لم يؤتِ "أوسيري" بأي حركة. كانت حقيبة يدها نصف المفتوحة تلوح برزمة من أوراق الـ٢٠ يورو الزرقاء وكأنها تصرخ وتستنجد بـ"كاسوم" أن يمنحها ملاذًا أكثر أمانًا في جيوبه هو. لم يكن قد رأى قطعة نقود واحدة منذ أسبوع، وهذه الحقيبة شبه المفتوحة، يمكن لـ"فلوجو"، أقل النشالين

براعة في حي "تراشفيل" الشعبي بـ"أبيدجان"، أن يخفف حمولتها دون لفت الانتباه. قال "أوسيري" لـ"كاسوم":

- "كاس"! دع عمل الصعاليك للصعاليك.

ألحت الفتاة بالإنجليزية:

- أريدك أن تنام معي، لتنم معي!

رد عليه "كاسوم" قائلًا:

- لا، أنت هنا تبالغ، هي من جاءت بنفسها إليَّ. لا تسلل، "أوسيري"، إذا جاءت الكرة من المنافس.

- أريدك أن تنام معي، لتنم معي!

- ماذا تقول الفتاة؟

- تدعوني لأنام معها. أقسم لك، إنها تتحداني.

- إذا لمستها، سأقطع أي صلة لي بك.

- لتنم معي، لتنم معي!

- صنف ابن أغنياء صحيح!

كان "كاوسوم" ينهي أي خلاف بينهما بجملة "اللعنة عليك يا ابن الأثرياء"؛ إذ يقولها في كل مرة يختلفان فيها على طريقته لكسب العيش في الأوقات الصعبة. ولكن عندما بدأت الفتاة في التقيؤ على قميصه أولًا ثم على حذائه، قرر "كاسوم" أن يوقظ ذكريات الحارة داخله، وأن يعطي تلك السِّكِّيرة ضربة رأس قوية، في المكان المناسب؛ واحدة من ضربات "الشقي ضارب الرؤوس" التي بسببها ذاع صيته وتجنب الجميع في "كولوس" الدخول معه في عراك.

"أوسيري، لقد سكنت الحارة سنوات وسنوات، والآن، فإن الحارة هي التي تسكنني".

لكن شيء ما في عيون هذه الفتاة منعه من ضربها وهذا الشعور لم يخفت. لم يدر " كاسوم" سبب ذلك. ربما هو إحساس بالضيق؛ هذا الضيق الذي كثيرًا ما كان يلمحه في عيون جيرانه بـ"كولوس" ممن لا يعرفون كيف يبدأون يومًا جديدًا بائسًا كالليلة التي سبقته.

أو ربما هو لون عيني تلك الفتاة الأخضر الفاتح. ما سر هذه العيون الخضراء؟ في حكايات طفولته، كان للوحوش عيون خضراء بلون الغابات العميقة. لم يرَ "كاسوم" مثل هذه العيون بهذا اللون بهذا القرب. كان اضطرابه واضحًا للعيان. كان "أوسيري" يشجعه لكي يستضيفها في "لا شابيل" حتى تسترد عافيتها. لن يقول "زاندرو" شيئًا ولم ولن يرى أي شيء. كان منشغلًا دائمًا ومنهكًا بسبب محاولته السيطرة على الأشخاص العنيفة والهيستيرية، والنشالين، والسكارى، والغشاشين، والغاضبين، والمذعورين، والمكتئبين، وتجار المخدرات، والمدمنين، والمنتشين الذين يعتقدون أنهم الأقوى في العالم بعد استنشاقهم سطرًا من الكوكايين أو بعض حبوب "الإكستاسي".

حمل "كاسوم" الفتاة وحده على السلم الضيق. انسدل شعرها الأشقر الطويل على كتفيه العريضتين. لا بدَّ أن أصول هذه الفتاة تعود إلى بِيض البشرة الذين عاشوا في قبائل في أقصى الشمال البارد المتجمد؛ أولئك الذين دائمًا ما غزوا السواحل الجنوبية لأوروبا ونشروا الرعب والفوضى والحيوانات المنوية. لم يرد "أوسيري" أن يساعده متحججًا بأنه من المريب رؤية رجلين من السود في "الباستيل" وهما يحملان فتاة بيضاء شبه فاقدة الوعي في شارع مظلم وخالٍ تمامًا من المارة. كان على حق، ولكنه أطلق تفكيره إلى أبعد من ذلك؛ اختتم "أوسيري" تفكيره بحزم قاطع قائلًا

- تحولت الوشاية إلى رياضة وطنية منذ الحرب العالمية الثانية. عندما كان الألمان يحكمون البلد، كان الناس يشون باليهود وعناصر المقاومة، عندما انتصر الحلفاء، كانوا يشون بالخونة والمتآمرين. هنا، يوجد دائمًا من سيشون بنا، ومن سنشي بهم.

لم ينصت له "كاسوم" قط.

وكفهد يحمل غزالة ثقيلة للغاية ويتسلق بها شجرة ليبتعد بها عن طمع قطيع جائع من الضباع، رفع الفتاة الخرقاء حتى "لا شابيل". وهكذا، تعرَّف "كاسوم" على "إميلي"، وهي من منطقة "نورماندي"، وتعمل معلمة لغة إنجليزية في مدرسة بضاحية "غرب باريس".

MONOPRIX

تطل ساحة مبنى البلدية في الحي "الحادي عشر" على ميدان تنقسم حركة المرور فيه بين شارع "بارمونتيه، طريق فولتير"، وشارع "لا روكت" وشارع "لودري رولان". كسرت دراجة "أوسيري" الإشارة الحمراء متوجهًا إلى شارع "لودري رولان". يقع متجر "مونوبري" في التقاطع مع شارع ضاحية "فوبور سان أنتوان". تعمل الخالة "أوديت" رئيسة قسم من أقسامه منذ عامين. عملت في البداية على "الكاشير" مدة 28 عامًا. فمنذ 30 عامًا، عندما أحضرها زوجها من قريتها في أدغال غرب كوت

ديفوار، كانت بالكاد تعرف القراءة والكتابة، ولم ترَ في حياتها بشرًا غير الذين يركضون منذ ملايين السنين تحت الفروع المتسلقة للأشجار الكبيرة في منطقة "إيسيا". رأت وتعلمت الكثير في متجر "مونوبري". ولكن، هل يستغرق انتقالها من كرسي الخزينة إلى وظيفة أخرى 28 عامًا؟ ألم تأتِ تلك الترقية متأخرة كثيرًا؟ لكنها لم تعد تطرح مثل هذه الأسئلة. ستُحال إلى المعاش بعد عامين. على أي حال، اعتاد "أوسيري" المرور بها يوميًّا منذ أن عمل في "كامايو" بـ"الباستيل". تعرض عليه الخالة "أوديت" القهوة، فيوافق. يجلسان معًا في غرفة الاستراحة. يسألها عن أخبار "فردينان"، فترد باقتضاب. تسأله عن أخبار "أنجيلا"، فيختلقها في عبارات عاطفية مخلوطة بأخبار عامة عن البلد. فتضحك. كانت تضحك كثيرًا عندما يتحدث معها. ثم يعتذر ليتركها خوفًا من التأخر عن العمل. في طريق الخروج، وبين أقسام المتجر، وعندما كانا يقابلان زميلة قديمة لها من الثمانينيات، كانت تقول إنه ابنها. قبلة سريعة ثم يفك "أوسيري" دراجته من العامود الذي عليه لافتة مكتوب عليها "ممنوع وقوف السيارات". لم يكن "كامايو" بعيدًا، فيكمل طريقه سائرًا.

تخفيضات في "كامايو"
CAMAIEU

الزبائن الدائمون. يشترون الملابس كما لو كانت منتجات قابلة للتلف. يعودون كل شهر، كل أسبوع، كل يوم، بل وأحيانًا عدة مرات في اليوم الواحد. يمكن تعرُّفهم بسهولة. هم أكثر الزبائن عجلة. يعرفون ما يريدون، ولا يمكثون طويلًا أبدًا.

الزبائن مدمنو التخفيضات. نظراتهم مركزة دائمًا على الأرفف واللافتات برتقالية اللون التي تحمل علامة التخفيضات الشهيرة "٪". استلقى مولود صغير على ظهره في عربته الصغيرة؛ كان يعيش أول مرة تجربة الشراء المحمومة مع أمه التي تتسوَّق في موسم التخفيضات.

حقيبة اليد. في محل ملابس السيدات، لا مبرر لكي تقف سيدة تحمل حقيبة يد أمام القسم الصغير السخيف لحقائب اليد البغيضة.. إلا إذا كانت تسعى إلى إخفاء سرقة ما. تخفي ما سرقته في حقيبتها.

في سلة التسوق الخاصة بالمحل، تخفي مضادات السرقة التي قصتها بعناية بالكماشة في غرفة تبديل الملابس. تبادل غير عادل للبضاعة.

قانون حقيبة اليد. في متجر للملابس النسائية، تمسك كل السيدات حقائب أيديهن جيدًا؛ خصوصًا السارقات منهن.

مبدأ "كامايو". في متجر الملابس، الزبون الذي لا يحمل حقيبة يد، لن يسرق شيئًا.

مذياع "كامايو" يبث موسيقى في المحل طوال النهار. في مذياع "كامايو"، هناك 7 أغانٍ من 10 أغانٍ لمطربات، 2 دويتو مع رجل، وأغنية واحدة لمغنٍّ. كل أغنية تستمر 3 دقائق أي 20 أغنية في الساعة، أي إن الحارس يسمع 120 كارثة صوتية في نوبة 6 ساعات عمل. تعد فترة الاستراحة مكسبًا نقابيًّا كبيرًا.

المؤخرات اليمينية. على الرغم من إمكانية استنباط مجموعات لها صفات مشتركة، فإن المؤخرات لها سمات فريدة مثلها مثل بصمة الإصبع. هذا ما يطرأ على ذهن الحارس عندما يبدأ في التفكير عمَّا سيحدث إذا اختارت السلطات العامة هذا الأسلوب في تحديد الهوية في أقسام الشرطة.

المؤخرات اليسارية. نادرًا ما تشتري النساء الأفريقيات شيئًا غير البلوزات بسبب تكوينهن الجسماني. فالبنطلونات والشورتات الأخرى تكون مصنوعة وفقًا لمتوسط مقاسات المرأة البيضاء، والتي تكون دون مؤخرة بارزة. حتى إن تلك الملابس خاطتها - كما هو معروف - عاملات صينيات دون مؤخرات بارزة على الإطلاق.

يبدو أنه لا وجود لكلمة "مؤخرة" في الصين. يقولون هناك "أسفل الظهر"؛ فلا يمكن اختراع كلمة لجزء غير موجود في الجسم.

صيني. مع الكميات الكبيرة للملابس المصنوعة في بلد "ماو تسي تونج"، يمكن أن نقول إن وجود رجل صيني يشتري من محل ملابس هو عودة البضاعة إلى مصنعها، لأنه هو أو أقرانه قد أنتجوا كل هذه الملابس.

حوار

الرجل:

- لماذا تدور حولي هكذا؟

السيدة:

- نعم، أنت تدور حولنا! أنت تصيبنا بالتوتر!

الحارس:

- عذرًا، أنا لا أدور حولكما.. أقصد، لا أدور حولكما بالذات.

- هذا لا يصح، انظر إلى عربة التسوق، لا شيء بها. الأفضل أن تذهب وتدور حول الفرنسيين هناك وليس حولنا نحن.

- أنت تعاني جنون الريبة يا سيدي.

- ماذا؟

- أنت تعاني جنون "ا ل ر ي ب ة".

- لا، أنا جزائري.

مضادات السرقة، وملصقات السعر، وكبائن قياس الملابس. تخرج السيدات دائمًا، حافيات الأقدام، يرتدين الملابس التي يرغبن في شرائها من غرفة القياس بحثًا عن مقاس أو لون مختلف. تكون هذه الملابس مليئة بأقراص دائرية بلاستيكية على شكل أطباق طائرة رمادية اللون لمنع السرقة وتكون معلقة في القماش نفسه.

بالنسبة إلى الفساتين دون أكمام. يعلق الملصق تحت الإبط، ومانع السرقة على الجهة اليمني من المؤخرة والسعر على الظهر.

بالنسبة إلى البنطلونات. ملصق على الجهة اليمني من الفخذ، ملصق آخر على الجهة اليسرى إلى جانب علامة الخصم (50٪ على سبيل المثال) وتكون في صورة شريط طويل شبه شفاف ملصق على القماش. يُكتب السعر على الفخذ الأيسر وأحيانًا تُعلق بطاقة إضافية عن "طريقة غسيل المنتج" في شريط يتأرجح من الخلف.

بالنسبة إلى البلوزات والقمصان. علامة الخصم تكون شريطًا على الكتف اليسرى، وعلى الكتف اليمنى يوجد ملصق آخر والسعر مكتوب على بطاقة تخرج من ناحية الوسط.

وهذا يعني أن السيدة التي تقيس جينز "كارليتا" وتيشيرت "تولاران"

- 24 يورو و95 سنتيم، يطبق عليها خصم 50٪ من ثمن الفخذين والمؤخرة.

- 14 يورو و95 سنتيم، يطبق عليها خصم 30٪ من ثمن الثديين والصدر.

وإجمالي الخصم هو 17 يورو و45 "سنتيم" لتغطية الملامح الجسمانية الثانوية الأخرى.

السمينات. عادة، تبدأ السيدات السمينات بقياس ملابس أصغر من مقاسهن قبل أن تختفي بعيدًا عن الأنظار بالمقاس المضبوط في غرفة القياس.

المخزن. في المخزن توجد دورات مياه، وخزانات شخصية معدنية، وثلاجة، ومايكرويف، وسبورة مكتوب عليها:

"أسبوع صعب مليء بالجوانب السلبية + مؤشر نسبة المبيعات +91.9٪= مكافأة الجميع يستعد!" (احترمت أدوات الترقيم والرسم المستخدم).

بلوزة صغيرة لطيفة. "بلوزة صغيرة لطيفة"، هي أكثر الجمل المستخدمة في المحل لوصف البلوزات المباعة هنا. تقال عادة والرأس منخفض لتثبيت "البلوزة الصغيرة" بالذقن مع غمزة بالعين والإمساك بالبلوزة مفرودة جيدًا على الصدر. قد نجد مع المشتري شخصًا من العاملين بالمحل في هذا الحوار أو لا.

فرنسيات من خط الاستواء. إن هؤلاء الفتيات المتأنقات ممن يمضين ساعات في المحل في الحديث عن الملابس عند قيامهن بالشراء؛ مثلهن مثل الفرنسيين الذين يتحدثون عن الطعام حول المائدة. اللعنة! هي ثقافة تسري في الدم ولا علاقة لها باللون!

تحولات لها علاقة بالشعر. فقدت "فاطمة"، المسؤولة عن المحل، خصلات الشعر الأسود المجعد الجميل الذي تتمتع به فتيات المغرب العربي الأسبوع الماضي. أصبح لديها الآن شعر مفرود وأشقر مثل فتيات "الفايكنج".

لم نرَ شعر "كرستيان"، البائعة السوداء، المجعد الجميل أبدًا. فهي ترتدي نسيجًا صناعيًّا لخصل سوداء كبيرة مجدولة وتصل لوسط الظهر.

البترول و"الألفا كيرياتين". خلال أسبوعين من العمل في الحراسة، ما من سيدة سوداء دخلت المحل بشعرها الطبيعي. جميعهن يرتدين الشعر المستعار، وخصل الشعر الصناعية، ضفائر من النسيج، ووصلات الشعر المصنوعة من خيوط النسيج المصنوع من المشتقات البترولية. البترول، مصدر للطاقة الناتجة عن تحلل كل الطبقات الجيولوجية السفلى لكل المواد الحيوية المتراكمة عبر الزمن.

السيدات السوداوات يحملن فوق رؤوسهن طاقة أحفورية. يرى الحارس سيدة سوداء ذات شعر غزير وطويل يصل إلى مؤخرتها. لا بدَّ وأنها كي تصفف شعرها بهذه الطريقة، قد احتاجت إلى قبيلة كاملة من "التيرانوصور" على الأقل.

نظرية الرغبة في الحصول على قصات شعر معينة. تنتشر رغبة الحصول على قصة شعر معينة من قرى في الشمال: بداية من الفتيات ذات الأصول المغربية وحتى جنوب "الفايكنج" أو دول الشمال. يرغبن في شعر أشقر ناعم مثل شعور بنات "الفايكنج"، والفتيات من أصول أفريقية وحتى جنوب دول المغرب، يرغبن في الشعر المموج لبنات المغرب العربي.

جليسات "البيتي" للأطفال البيض. يتعرف الحارس من النظرة الأولى على جليسات الأطفال من "البيتي". هن سيدات من "الكوت ديفوار"، من منطقة "جانوا" على الخصوص. في فرنسا، يعملن جميعهن تقريبًا "جليسات أطفال".

جليسات الأطفال. مصطلح تم اختياره بعناية للحديث عن مربيات الأطفال في الغرب. هؤلاء الأطفال يعاملون معاملة الملوك، ولكنهم في الواقع سجناء.

جليسات الأطفال البِيض التقليديات. يشعر الحارس بالصدمة من الصورة الجنونية التي يتخيلها لجليسة أطفال أفريقية لطفل أبيض تدخل المحل عارية الصدر وهي ترتدي تنورة قديمة مجدولة من عروق أوراق نخيل "الرافية". لكن سريعًا ما يعود إلى أرض الواقع. أمامها، في عربة الأطفال المزدوجة، رضيعان أشقران لهما ملامح ملائكية. ترتدي جليسة الأطفال بلوزة صغيرة لطيفة من "البولياميد" وجينز قديمًا مهترئًا.

حوار بين جليسات الأطفال الأفريقيات

جليسة الأطفال 1 وهي تنظر باحتقار إلى جينز من طراز stone washed المُرقَّع والمبقَّع:

- أنا لا أشتري هذا الجينز، إنه مثل الـ"wôrô wôrô"(1) يبلى سريعًا.

وافقت الجليسة رقم 2 قائلة:

- عندك حق، أختي، ما معنى أن تجدي قطعًا في الجينز قبل حتى أن تشتريه؟

ثم أصدرت صوتًا يصدره الأفارقة من ضم الشفتين والضغط على الأسنان للتعبير عن الاشمئزاز.. Tchrrrr

المصطلحات. في مجتمع الإيفواريين في فرنسا، ولفرط تأصل مهنة الحراسة بها، نجد مصطلحات خاصة تشوبها دائمًا تعبيرات من اللغة العامية الأبيدجانية؛ لهجة "النوشي".

الوقوف مدفوع الأجر: المقصود بها كل المهن التي ينبغي فيها الوقوف للحصول على أجر.

"زاجولي". يُشار بها إلى الحارس نفسه. "زاجولي جوليه" هو اسم حارس مرمى شهير لنادي "الأفيال"، المنتخب الوطني لكرة القدم بكوت ديفوار. أن تكون حارسًا، هو أمر شبيه بحراسة المرمى؛ فأنت تظل واقفًا تشاهد غيرك يلعب ومن وقت إلى آخر تشترك لالتقاط الكرة.

Wourou-Soufé. تعني حرفيًّا بلغة "المالينكي" "كلب الليل"، والمقصود بهذا المصطلح "مدربو الكلاب"، أو كما يُقال في المفردات الإدارية: "عناصر الأمن التي تقود الكلاب". وعلى الرغم من أن رواتبهم أفضل كثيرًا، فإن عدد "مدربو الكلاب" أقل كثيرًا من "الزاجولي" في الأوساط الأفريقية.

أمَّا في أفريقيا جنوب الصحراء، بمنطقة الساحل، باستثناء "الدوزو"، وهم فئة من الصيادين التقليدين الذين يرتدون ملابس أشبه بـ"خيال المآتة"، لا يوصف الكلاب إلا من خلال تعبيرات مثل "كلب مسعور"، و"كلب هجين"، و"كلب شرير". توجد اختلافات طفيفة للغاية بين مكانة الكلاب في مجتمع البشر.

بالنسبة لمفهوم أن الكلب هو أفضل صديق للإنسان فهي بدعة غربية حديثة للغاية بالنسبة لهم. لذا، فإن فكرة اعتبار الكلب رفيق حياة وشريك عمل تُعتبر عائقًا نفسيًّا وثقافيًّا يصعب للغاية تخطيه، خصوصًا عندما تكبر بين شعور الاحتقار والخوف تجاه الكلاب المسعورة أو المتوحشة التي تتجول في هيئتها النحيفة في المدن الأفريقية. ثم إن الحصول على كلب وإطعامه وتدريبه وإعالته هو استثمار مالي لا يمكن إنكاره، خصوصًا عندما تفتقد الأوراق الرسمية والعمل. إذا كان الحصول على عمل يتطلب الحصول على كلب، فيمكن أن نقول إن الكلب لا أمان له. خلص الإيفواريان بأن: مهنة "زاجولي أفضل".

مذياع " كامايو" يبث أغنية:

I like your body

So shake your booty

Let's get it on

And keep on pushing…

عدد كبير من مطربات "النيو سول" الإنجليزيات والأمريكيات أو الفرنسيات - وهن الأسوأ - يصرخن بكلمات ركيكة في نسخة مخففة من المطربة المعذبة لكن الرائعة "إيمي وينهاوس".

عندما كانت "أريتا فرانكلين"، "ملكة السول" على قيد الحياة. كيف نسمح لأشباه المغنيات أن يشتهرن وندَّعي بأنهن يغنين "السول"؟ فلم يعد لدينا الوقت أو الذوق في أن نجعل الأموات المشهورين يتقلبون في قبورهم، فنحن نسيء إليهم وهم على قيد الحياة.

"قوة الورود" Flower Power (كتبت باللغة الإنجليزية). "لورا" و"روزا"، بائعتان مبتهجتان من جزر "الأنتيل" تحملان أسماء الأزهار. ترتجلان من وقت إلى آخر خطوات رقص مبهجة على أنغام موسيقي مذياع "كامايو".

كانت حركاتهما الراقصة قادرة دائمًا على رسم الابتسامة على شفاه جميع الموظفين في المحل، وقدرتهما الساحرة دائمًا على تخفيف أثر نقص موهبة المطربات الصارخات في الخلفية الصوتية.

النظرية الجينية الأولى لسكان جزر "الأنتيل". لون البشرة، لون العينين، شكل الشعر، شكل الأنف والفم والمؤخرة.. في التكوين الجسماني لسكان "الأنتيل"، هناك على الأقل سمة واحدة تذكرنا بأن السيد الأبيض، "البيكية"، لا يجيد استخدام السياط إلا مع نسائه الرقيق، أو ربما من الأفضل أن نقول "الإناث" لنحترم اللغة المستخدمة في ذلك العصر.

النظرية الجينية الثانية لسكان جزر "الأنتيل". في زمن الرقيق، كان من النادر، بل من المستحيل أن يتكاثر عبد ذكر أسود مع السيدة البيضاء. لذا، فالسادة البيض مع النساء السود هم من جعلوا جزر "الأنتيل" مختلطة. ولما كان جنس المولود يتحدد وفقًا لكروموسوم الرجل، فنحن على يقين من أن كل رجال جزر "الأنتيل" المختلطين يحملون بالتأكيد كروموسوم من أصول قوقازية.

نص النظرية. في جزر "الأنتيل"، الرجل أبيض والسيدة سوداء.

الأطفال الرضع: دائمًا ما يرد الأطفال الرضع - غير عابئين بشيء - الابتسامة للحارس.

أمَّا الحارس فهو يعشق الأطفال؛ ربما لأنهم لا يسرقون، ولأنهم يعشقونه لأنه لا يصحبهم معه للشراء وقت التخفيضات.

النسخة الإنجليزية؛ نظرًا لتدفق السائحين الأجانب، نجد الكثير من حقائب المحال تحمل كلمة باللغة الإنجليزية، لذا، نقرأ كلمة "Sale" – "تخفيضات" بالحروف الكبيرة على حقيبة "لا كوست" المجاور.

يقول زميلي الحارس في المحل المجاور إن بعض الأسر الفرنسية ترفض أخذ هذه الحقائب. يبدو أنهم لا يريدون أن يتعرضوا لأي خلط لغوي يؤثر بالسلب في صحتهم الجسدية.

ذوات الشوارب. أم وابنتها تشبهان بعضهما كثيرًا، تدخلان إلى المحل ولكل منهما شارب رفيع واضح. يرتسم على وجه الفتاة المراهقة الصغير انطباع بأنها تعيش حياة تعيسة. تبدو الأم، التي تبلغ من العمر تقريبًا خمسين عامًا، أكثر انطلاقًا وإن بدت كئيبة قليلًا. منذ عقود، وهذه السيدة تحمل كل هذا الكم من الشعر غير المعتاد لدى النساء، ربما يكون ذلك منذ أن كانت في عمر ابنتها الحالي نفسه، كان لديها ما يكفي من الوقت لتتقبل هذا الأمر. ما زالت أمام الفتاة أعوام لتتخلص من هذا الشعر.

جاءت الأم والفتاة ذواتا الشوارب مرة ثانية، كان من السهل تعرفهما. يلقي عليهما الحارس تحية الصباح ممزوجة بابتسامة آملًا في إدخال السرور على نفسيهما. لا تجيب الأم ولا تفكر حتى في الالتفاف، أمَّا الفتاة فتلقي إليه نظرة خبيثة.

نظرية الشارب. "هتلر"، و"ستالين"، و"الجنرال بينوشيه"، و"الزعيم بونجو"، و"صدام حسين".. يُعتبر الشارب لدى الديكتاتور علامة خارجية على النطاق الشخصي؛ ولكن عند النساء، وخصوصًا المراهقات، فالشارب هو مصدر للتعاسة.

وريثة مستقبلية. بعد أكثر من ساعة من التجول في المحل دون شراء شيء، توجهت سيدة بالحديث إلى عجوز محنية الظهر على عصاها:

- ماما، فلنذهب إلى محل "نيو لوك" في الجهة الأخرى، هناك تخفيضات جديدة!

في حر الصيف الشديد، تحركت العجوز المرهقة لتتبع ابنتها بصعوبة فاغرة فاها، ولكن دون أي اعتراض.

متحولات "لا بلاس". كيف يمكن أن نفكر في متحولات "لا بلاس" بالنظر إلى عجوز بشعر مصبوغ للون الأرجواني الفاتح وهي تفتش في قسم "جابي" لمنتجات سعرها 95.24 يورو بتخفيض يصل إلى 70٪، عن سترة قبيحة مخططة بلون بيج كلون خراء الإوز؟

الوشم. على رقبتها وشم بخطوط رقيقة ومحددة يمثل زهرة اللوتس التي تشبه إلى حد كبير شعار ماركة "لوتس" لورق التواليت. بسبب لون بشرتها الباهت للغاية، بدا الوشم وكأنها تحمل بكرة ورق تواليت بين رأسها وكتفيها.

العودة إلى الماضي. في المخيلة الشعبية الغربية، لطالما اُعتبِر ثقب الفم أو الأنف أو تشريط الجسد والوشم من أقدم الممارسات وحشية.

واليوم، ما معنى أن كل هؤلاء من أصحاب البشرة البيضاء يثقبون أجسادهم في مختلف الأماكن؟ وما هذه الوشوم القبلية المتناثرة على الأجساد؟ هل هي موضة؟ أم حالة من الضيق؟ أم هي موضة لنشر حالة الضيق؟ أم هل هي حالة ضيق من انتشار الموضة؟ أم رغبة غير مقصودة في العودة إلى حالة "البدائية البريئة" المطمئنة؟

الثورة. في الرابع عشر من يوليو عام 1789، أصبح معلومًا للجميع أن في "الباستيل" لم يكن هناك سوى 7 مساجين فقط. في قول آخر، لم يكن هناك أي شخص ليتحرر آنذاك. إن التاريخ يحتفظ بالرموز لا بالوقائع؛ إذا ما تكررت الثورة اليوم، فإن السيطرة على "الباستيل" ستحرر آلاف المساجين من فخ الاستهلاك.

معادلة "لا بلاس 2". هي عملية رياضية معقدة اخترعها عالم يحمل الاسم نفسه، وتسمح بوصف متغيرات عدة وظائف بمرور الوقت. حاليًّا، تُستخدم هذه العملية في التسعير؛ فنحن نستخدم عملية "تحويل لا بلاس" على سبيل المثال لإيجاد الأسعار المناسبة التي يمكن تطبيقها وقت التخفيضات. عملية معقدة للغاية لأشياء تافهة للغاية.

"آيفون". تقيس فتاة شابة نظارات وتتحرك بهاتفها "الآيفون" وتشغل خاصية "فيس تايم". بجانبها مرآة ترتفع حتى السقف. تقيس فتيات أخريات ملابس في غرفة القياس ويصورن أنفسهن بهواتف "الآيفون" من كل الزوايا. ثم يتناقشن حول اختياراتهن عبر الشاشة. فقد أصبح للـ"بيكسل" اليد العليا على العين البشرية.

صلاة. ذراع ممدودة نحو تنانير "لانجوست لان" والذراع الأخرى ممدودة نحو فساتين "لور" مجموعة الصيف، وسيدة تركع على ركبتيها أسفل تنورة قصيرة ماركة "فيكتور". آمين.

الكفر بالمقدسات. في خزانة الملابس، يوجد ما يقرب من عشر قطع لم "تُصنع في الصين" بل كُتِب عليها: "صنع في تركيا". أي تقريبًا في أوروبا!

الملاك. في ميدان "الباستيل"، يقف الملاك المطلي بالذهب عاريًا فوق قاعدته. ولما كانت الملائكة عديمي الجنس، فيمكنها ارتداء الملابس سواء من "كامايو" أو "سليو" بالتساوي. ولكن كيف نخبرهم بأنه وقت التخفيضات؟

حوار:

- كم السعر بعد خصم 20٪، من فضلك؟

(سيدة تسأل هذا السؤال وهي تلوح ببطاقة مكتوب عليها 99.29 يورو).

يرد عليها الحارس:

- سيقل 6 يوروهات تقريبًا، سيدتي.

- لا بدَّ وأن يتأنق المرء ويستعيد طعم الحياة. لقد فقدت زوجي مؤخرًا.

-....!

- شكرًا سيدي، أنت لطيف، الآن، سأذهب لكي أحاسب.

الفتاة المراهقة على الكرسي المتحرك. دخلت فتاة مراهقة قعيدة على كرسي كهربائي متحرك. سبقتها أختها وأمها ووالدها. في الجزء الخلفي من الكرسي يوجد مقبض للدفع. داخل المحل، كانت الفتاة وأختها يعلقون عليه الملابس التي يختارانها بشكل هيستيري. بعد ساعة من الوقت، تحوَّل الكرسي إلى دولاب متنقل ماركة "كامايو".

العشاق. عاشقان يقبلان بعضهما بشغف كبير في زاوية فساتين ماركة "جاكارتا"، وهي فساتين طويلة ألوانها زاهية. تبدو داخل خزانة الملابس كستائر ملهى ليلي. يبث راديو "كامايو" أغنية "الحب خبيث" love is wicked لـ"بريك" و"لاسيه".

المانيكان. دخلت سيدة ترتدي توبًا مقلمًا طراز "باليار" وبنطالًا من طراز "مارتينيك"، وحذاءً من طراز "أرتميس". هي ترتدي بالفعل كل شيء من " كامايو".

"هاديس": معطف مصنوع 100٪ من جلد الخنزير. فهل هذا المعطف ممنوع ارتدائه بالنسبة للمسلمين واليهود؟

"هاديس"، معطف حرام (المفتي الكبير)

"هاديس"، معطف مخالف للشريعة اليهودية (الحاخام الكبير)

- تم تطبيق خصم 70 ٪ على المعطف المصنوع 100٪ من جلد الخنزير.

- معطف "هاديس"، خصم الإغراء ب 95.99 يورو (البائع الأعظم)

تعريفات

98٪ قطن + 2 ٪ ليكرا = جينز "سليم فيت".

95٪ قطن + 5٪ ليكرا = "جينز سكيني".

أن تكون مواكبًا للموضة أو صاحب موضة قديمة، كل هذا متوقف على 3٪ ليكرا فقط.

أسماء الملابس:

"ميستك": توب.

"تولارنت": توب.

"إيجيبت بيس": فستان.

"ريجولا": توب.

"جان": جينز.

"طاباتا" مقلم: فستان. "طاباتا" هو اسم مستعار لممثلة بورنو شهيرة في التسعينيات.

"مارتينيك". بنطلون من الكتان الأبيض. كان "البيكية" يرتدون مثل هذه البنطلونات في حقول زراعة القصب أيام العبودية في جزر "المارتينيك".

"تورنتو"، "دنفر"، "سان فرنسيسكو"، "داكار". كلها فساتين. وفي أجنحة بيع "كامايو"، فستان "داكار" يكون إلى جانب فستان "سان فرنسيسكو".

جينز. جينز اسمه "جان".

"مخترعو الأسماء 1". مع كل هذه الأسماء التي تُطلق على الملابس، هناك في الهيكل الوظيفي لـ"كامايو" وظيفة لمتخصصي إطلاق أسماء على الفساتين والبنطلونات بكل أنواعها.

"مخترعو الأسماء 2". عندما يتخيل الحارس جلسة عمل لثلاثة من "مخترعي أسماء الملابس":

"يجلس الجميع حول طاولة، في يد كل واحد كأس من الشمبانيا وأمامهم طبق من الفضة مليء بالكافيار. تمر الملابس على شماعات معلقة على حبل معدني يتحرك بواسطة موتور. يمر فستان به ورود. وبين جرعتين من مشروب "لافوف كليكو"، يصرخ واحد من الثلاثة بكل غرور: "سيكون اسمك "هيبسكيس"، كنبات الكركديه، هكذا قررنا. التالي!"

وافق الشخصان الآخران، بكل جدية، وأفواههم مملوءة ببيض سمك الحفشية. يمر فستان آخر أمامهم.

"موهوبو الحرير الصناعي". "كوليبري"، و"لنجوست"، و"تابير"، تحتوي بالترتيب على 92٪، 95٪، 98٪ حرير صناعي. كلما زادت نسبة تركيز الحرير الصناعي، اختار "مخترعو أسماء الملابس" حيوانات غريبة لتسمية الملابس. ++(تحريريًّا؛ ليس مكان هذا الكلام داخل الهامش).

مذياع " كامايو" 3.

I like the way you shake your ass around me

ps around me… I like the way you swing your li

يغني مذياع "كامايو" في آذان سيدة عجوز. تحرك مؤخرتها برفق وتتمايل برأسها وهي تفتش في الفساتين المخفضة إلى 70٪ وهي أكبر تخفيضات حتى الآن.

علامة "٪" تبدو كعضو ذكري وسط الغدد التناسلية. تتدلى هذه العلامة من العديد من اللافتات المعلقة في السقف وتتأرجح فوق رؤوس السيدات المتحمسات للتخفيضات.

"بوليمر"، "بوليستر"، "بولياميد"، "بولي فينيل"، كلها مجموعة جزيئات كبيرة من الألياف المستخدمة في صناعة المنسوجات. يطلق الكيميائيون على هذه المجموعة "البوليمرات".

بعد انقضاء عهد الأمومة وتدهور حياتهن الجنسية، تنجذب السيدات فوق الـ50 إلى الملابس المصنوعة من ألياف "البوليستر"، و"البولياميد"، و"البولي فينيل". يُطلق عليها الحارس مجموعة "البوليمرات".

لعبة الغميضة (1). حذار من الحارس الذي يشعر بالملل أو يعطي انطباعًا بذلك.

حتى يقضي وقته، يلعب الغميضة مع سارقة في المحل. يختبئ الحارس من السارقة لمفاجأتها في حالة تلبس. تختبئ السارقة من الحارس حتى لا يقبض عليها متلبسة.

تقضي السارقة وقتًا طويلًا لتسرق حذاءً بـ 95.29 يورو عليه خصم 30٪! وبعد ساعتين من لعبة الاختباء - إذا نجحت السارقة - ستحتاج إلى مزيد من الوقت لتبيعه، وفي أحسن الحالات ستبيعه بنصف قيمته. يمكن أن نقول إنه نظرًا إلى المخاطر، والخبرة المستهلكة، والساعات الثلاث لكل منتج منذ السرقة وحتى البيع، فإن السرقة من "كامايو" تُعتبر نشاط قليل الربح للغاية.

لعبة الغميضة (2). لعبة الاختباء في خزانات الفساتين الطويلة هي اللعبة المفضلة للأطفال مفرطي الحركة.

الفتاة المراهقة على الكرسي المتحرك (2). يساعد الأب الفتاة المعاقة للخروج من الكرسي والمشي حتى كابينة القياس. يمكن ملاحظة الكثير من الحنان بين الأب والفتاة من حركة يديه وذراعيه اللذين يحيطانها ويحتضناها ويدعمانها. يربط بينهما الحب الأبوي والاعتماد الجسدي للفتاة على الأب. كل منهما يدعم الآخر في واقع الأمر. فالاعتماد أو الاتكال ليس كما نحسبه أو نتخيله. هناك شخصان مضطران إلى أن يتلامسا أغلب الوقت، ألن يكون بينهما حنان ورقة تفوق الحد المتوسط؟ هل يمكن أن نصبح أكثر رفقًا ببعضنا بعضًا إذا ما تلامسنا بشكل دائم أكثر؟

السيدة الكفيفة. تشتري سيدة كفيفة الملابس بصحبة زوجها وابنتها وكلبها. يحدثها الرجل دون توقف، بصوت عال، بلكنة أهل الجنوب، بجمل سليمة البناء ودقيقة للغاية. تتحسس الأقمشة مطولًا لتختار وهو يلمسها بشكل غير ملحوظ من وقت إلى آخر ليوجهها إلى الاتجاه الصحيح. مرة أخرى، أناس مضطرون إلى التلامس. مرة أخرى، اعتماد متبادل، والكثير من الحنان. فإعاقة السيدة تمثِّل عاملًا لتحسين لغة المحيطين بها.

ميكانيكا كرسي الفتاة المعاقة المتحرك:

- عجلتان أماميتان.
- محرك كهربائي.
- بطارية كبيرة من الليثيوم.
- عجلتان خلفيتان لتحديد الاتجاه.
- مقعد يعلوه غطاء أخضر اللون لامع لإبقاء الظهر مستقيمًا.
- نظام عبقري من مساحات التخزين على الجوانب وتحت المقعد.
- عصا للتحكم في الاتجاهات وشاشة صغيرة للتحكم من الكريستال السائل فوق مسند اليد الأيمن.
- 4 أزرار تحت عصا التحكم، أحدها يحمل صورة بوق.

هل يجسد هذا الكرسي سيارة المستقبل؟ نحن بعيدون تمامًا عن اللوحة الخشبية بالعجلات الأربع الخاصة بمصابي شلل الأطفال أو مبتوري الأرجل التي كانت تُستخدم قديمًا.

نشاط الحارس المستمر. ما هي المفارقة في حركة الحارس الحيوية التي تفسِّر شعوره بالألم في أسفل الظهر وهو يعمل واقفًا طوال النهار؟

بيولوجية الحارس. رغبة ملحة في التبول. يشعر الحارس، قبل ساعة من موعد الاستراحة، برغبة عنيفة في التبول.

متعدد اللغات. على لافتة كبيرة في نهاية المحل كُتبت كلمة تخفيضات بكل اللغات الأوروبية:

،saldi, zl’avy, soldeN arleszal- litas, wyprzedaz, slevy, octaкиreduceri, ، promotionale, rebaJas…

تنشأ أوروبا أيضًا من خلال الاستهلاك.

"إليزابيت" (1). بائعة تبدو من هيئتها أنها مصابة بداء فقدان الشهية ويبلغ وزنها 35 كيلو مقسمة على 1.70 متر. ديناميكية للغاية ولا تتوانى في تبادل النظرات أو الابتسام للحارس الذي يزن تقريبًا 100 كيلو. التجاذب الطبيعي للأقطاب المتنافرة.

"إليزابيت" (2). قبل أن يذهب إلى منزله، يوزع الحارس الحلوى على البائعات. أما "إليزابيت" فستحصل على نصيب اثنتين.

عندما تتوقف الموسيقى. تتوقف الموسيقى في السابعة والنصف مساءً. تعيد الفتيات ترتيب المحل: نسمع الصوت المعدني لشماعات الملابس التي تتحرك على أعمدة الدواليب.

آخر الزبائن يزعجوننا. يحاول الحارس بعبارات مهذبة، ولكن حازمة، توجيههم نحو الخزانة للدفع ويحرص ألا يدخل زبائن جدد. هذا هو الفاصل النهائي. في الداخل، هناك دائمًا شخص يقسم بالغالي والنفيس أنه لا يحتاج إلى سوى دقيقتين فقط. على الباب، هناك دائمًا شخص يقسم بالغالي والنفيس أنه لن يستغرق سوى دقيقتين فقط. ينظر إلى الحارس دائمًا نظرة اشمئزاز لأنه لا يستسلم أبدًا لهذه الدعوات بدقيقتين إضافيتين. هناك دائمًا صعوبة لتقبل التوبيخ ممن لا نراهم خلال اليوم. كل شيء خاضع للتخفيضات بما في ذلك احترام النفس.

العصر البرونزي من 1960-1980

عندما نزل "فردينان" شارع "فينسنت أوريول" باتجاه نهر "السين"، كان يحدث نفسه بأنه ضاق ذرعًا بـ"الريونيين" أي الأشخاص محبي الاجتماعات. أطلق على الطلاب في السكن هذا الاسم لأنهم كانوا يعقدون اجتماعات من أجل كل شيء وأي شيء. أمس، كان موضوع الاجتماع هو "أخذ موقف مناسب إزاء وقف سفارة كوت ديفوار توزيع أوراق التواليت في المبنى". وبعد ثلاث ساعات، لم يتفقوا على صيغة "الاحتجاج" الذي سيقدمونه إلى مكتب السفير في باريس في 102 شارع "ريمون بوانكاريه".

كانت مجموعة "الشيوعيين" تعترض على كل فاصلة تكتبها مجموعة "الاشتراكيين الخونة". أما الليبراليون، "عملاء وأتباع الإمبريالية والرأسمالية الدولية" كانوا معرضين للقتل كل مرة يحاولون فيها الحديث. وبعد ساعتين من القدح والبصق في كافة الاتجاهات، وما كادوا يصلون إلى الفقرة الأولى، حتى انقسم "الشيوعيون" فيما بينهم لأن "الصينيين" يجدون "الروس" جبناء للغاية وأن "الألبانيين" لا يطيقون "الصينيين" ويعتقدون أن "الروس" مثيرون للاشمئزاز. هذا الصباح، وبعد انعقاد اجتماع آخر، لم يعرف أحد كيفية حل مشكلة أوراق التواليت. كاد "موقف المفكرين الأفارقة إزاء توابع الصدمة البترولية" أن يطلق الخطب الرنانة ويملأ سلال المهملات طوال اليوم.

بدأت الصافرات ولافتات الدعوة إلى الاجتماع قبل انطلاق المنبه القديم الذي يوقظ "فردينان" من نومه. كان ذلك في مصلحته، لأنه لا يمكنه التأخر على موعد العمل.

لم يكن "فردينان" طالبًا أبدًا.. كان فقط يعيش في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، واختصاره MECI((2)).

ورث - تقريبًا - هذه الغرفة عن قريب له يدعي "أندريه" عاد إلى بلده منذ عدة أشهر تقريبًا. رحل وأخذ معه في حقيبته دبلومته في الطب. كان "فردينان" يعلم في قرارة نفسه أنه لا يمكنه أن يدرس بهذا الشكل الباهر وأوقاتًا طويلة مثل قريبه. كان هذا أيضًا رأي معلميه ووالديه. عندما فشل في المرة الثالثة في الشهادة الابتدائية والتأسيسية، لم يتردد أبوه في إرساله "للبحث عن ذاته" في فرنسا. أقسم "فردينان" آنذاك إنه لن يعود إلى بلاده قبل أن يصبح "شخصًا ذا شأن". وصُرفت كل أموال حصاد البن والكاكاو في شراء تذكرة طيران.

استقل "فردينان" في صباح يوم ممطر في بداية شهر أكتوبر عام 1973 طائرة خضراء اللون تنتمي إلى "خطوط طيران أفريقيا". كان ثاني شخص في قريته يسافر إلى فرنسا.

استقبله "أندريه" في شارع "فينسنت أوريول" في باريس في غرفة الطلاب الصغيرة التي كان يتشاركها بالفعل مع "جون ماري" طالب الفلسفة المحنك "محب الاجتماعات" بشراسة. نظرًا إلى أن المنحة ضئيلة للغاية لا تكفي العيش في فرنسا وإرسال النقود إلى أسرته كبيرة العدد في موطنه، قرر العمل حارسًا بنصف دوام في مصنع "جراند مولان" بباريس. في صباح أحد الأيام، في موعد الوردية الليلية، أنقذ أحد العمال من أزمة قلبية بعد أن انهار أمام كشك الحراسة. انتشر الخبر في المصنع بأكمله. "الحارس الأسود أنقذ حياة بيار ألان جاكينو المعروف ببيارو"، قائد النقابة صاحبة القوة المطلقة "لائتلاف العمل العام" لمصانع "جراند مولان" بباريس. عرف الجميع أن "هذا الحارس الليلي الأسود" يُدعى "أندريه" وليس "الحارس" وأنه يستكمل بالتوازي دراسة الطب في كلية "بيار وماري كوري". بالنسبة إلى العدد

الأكبر من عمال المصنع، لم يكن هناك فرق بين طالب يدرس الطب أو طبيب. لذا، ومنذ ذلك اليوم، بدأ البعض منهم يشتكي له أوجاعه. لم يحمل كشك الحراسة اسم شخص مثلما حمل اسمه. وتحول أحيانًا إلى كابينة كشف واستشارات. وأصبح اللقب الطبيعي لـ"أندريه" هو "الدوك". سنوات عدة، كان يفتح البوابة ويغلقها بعدد المرات التي يدخل فيها العمال ويخرجون. غالبًا، كان يعطي مواعيد في المستشفى التي يتدرب فيها. كان زملاؤه في التدريب بمستشفى "لابيتيه - سالبتريار" يشعرون بالدهشة من كم الناس الذين يبحثون عنه ويحيونه بحرارة في الممرات. شعر العمال بالقرب من "الدوك"، هذا "الطبيب الأفريقي". ربما يتعلق الأمر بالمسافة؟ ففي مصنع "جراند مولان"، لم يكن كشك الحراسة بعيدًا عن القاعة الكبيرة والمبنى الرئيسي للمصنع. في المقابل، كان المكتب الرسمي لطبيب العمل في الدور الخامس مع باقي مكاتب كبار المسؤولين. كان من السهل أكثر دخول المصنع من الأسفل. وبكل هذه "العلاقات" في الوسط العمالي، لم يكن صعبًا على "أندريه" أن يُدخل قريبه إلى المصنع، وبعد يومين فقط من وصوله إلى فرنسا، عمل "فردينان" بالفعل في "جراند مولان".

"صدر منذ عامين إخطار بإخلاء نزل الطلاب الإيفواريين في باريس".

كان " أندريه" هو أول من اطلع على حقيقة الأمر. عرف الخبر من مصدر موثوق. أكد له محامٍ عجوز عالجه من داء البروستاتا أنه منذ عشر سنوات، لم تعد العمارة الواقعة في 150 شارع "فنسان - أوريول" تنتمي إلى كوت ديفوار. فضَّل "أندريه" أن يصدق العجوز الأبيض بدلًا من الملونين الذين يعملون في السفارة الإيفوارية، الذين ينكرون كل شيء في كل مرة تُثار فيها الشائعة وتُطرح عليهم الأسئلة.

"في بداية الستينيات، عانى "أوفوي بوانيي" أزمة خطيرة من الشعور بمؤامرات تحاك ضده".

واصل "أندريه" حديثه بهذا الهوس الذي يجعله يضفي الطابع الطبي على كل أحاديثه:

- كان يرى، في كل مكان، وفي كل الناس، مؤامرات تهدف إلى اغتياله وتنتزع منه السلطة التي كان يحبها كثيرًا.

رفع "أندريه" كوب البيرة إلى فمه بحركة سريعة وعندما وضعه مرة أخرى كان نصف السائل الذهبي قد اختفى في مغارة حلقه.

- كل هذا بدأ في نهاية عام 59 من خلال مؤامرة غير مكتملة عندما كشف المؤامرة الشهيرة المعروفة بـ"مؤامرة القطة السوداء". صرخ "أوفوي بوانيي" أمام العالم أجمع، دون أن يضحك مرة واحدة، معلنًا محاولة سحره بقطة سوداء مدفونة في مقابر المدينة. حتى إنهم وجدوا صورة له محاكة في أحشاء هذا

الحيوان المنزلي المسكين. في البداية، سخر الجميع كما لو كانوا ضباعًا مسنَّة أكلت وشبعت من لحوم فاسدة. كان يجب أن تروا ملامح وجهه وهو يحكي. كان لديَّ انطباع بأنه يمنع نفسه من الانفجار في الضحك وهو يحكي هذه الرواية أمام الصحافة القومية والعالمية. خصوصًا، عندما قرأ الجمل المشعوذة المكتوبة على ظهر الصورة الموجودة في أحشاء القطة السوداء. لكن الرجل كان حقًّا جادًا. نشر في المدينة كتيبة شرطة مدربة خصوصًا على فك السحر الأسود وإبطال السحر الضار. كانت الشرطة توقف كل من تشك في أن لديه يدًا في هذه المؤامرة الغامضة. اتهم صديقي العجوز "جون - باتيست موكاي" بأنه المدبر الرئيسي لهذه المؤامرة الخفية. صحيح أنه كان صيدليًّا، إلا أنه من الحزب، وكان يغطي على بريق سلطة القائد العظيم "أوفوي بوانيي". سُجِن في الطابق السفلي من قصر الرئاسة، أسفل مكتب الرئيس بالضبط. من حسن الحظ، كنت في ذلك الوقت في فرنسا، لولا وجودي هناك لذقت ويلات السجن مثل "جون – باتيست" وكل من كانوا يدعمونه في نقده اللاذع لسلوك الحارس القديم للحزب.

توقف "أندريه" لاحتساء ما تبقى من البيرة وطلب زجاجة أخرى. استُغرِقت "أنجيلا يوهو" في فنجان الشاي أمامها، وكان "فردينان" يسترق النظر إليها من وقت إلى آخر محاولًا إعطاء انطباع بأنه ينصب بكل اهتمامه وتركيزه على ما يقوله "أندريه" الثائر.

- ثم في يناير 1963، وعندما أُغتيل صديقه "سيلفانوس أوليمبيو"، رئيس وزراء "توجو"، على يد عسكري شاب متوحش يُدعى "إيداما"، أصبح هوس "أوفوي بوانيي" بالمؤامرة أكثر حدة وتحول إلى مرض عضال. كانت صورة جسد المسكين "سيلفانوس" مرتديًا سروالًا قصيرًا بسيطًا، ومستلقيًا في ساحة سفارة الولايات المتحدة، في "لوميه"، عاري الصدر وتستقر عدة طلقات نارية في صدره، عاملًا صادمًا إضافيًّا. بعد عدة أيام من المأساة التوجولية، ادعى "أوفوي بوانيي"، أنه أحبط "مؤامرة الشباب".

النتيجة: كل كادر واعد في البلاد ولديه تقريبا 30 سنة كان يُوقَّف. سجنهم في "أسابو" بالقرب من قريته. بنى "أوفوي بوانيي" سجنًا ليتأكد شخصيًّا، بمعاونة أخته الكبرى "فآيتيه"، أنه كُشِفَ عن كل أعدائه من خلال أسطول المشعوذات، والواشين المحنكين، والعديد من المستشارين الفرنسيين الذين يوفرون له الحماية.

في شهر أغسطس من العام نفسه، عزلت ثورة شعبية تحت مُسمى "الثلاثة المجيدة"، القس "فلوبار يولو"، وهو أول رئيس للكونغو بعد استقلالها. في أفريقيا المستقلة، تحدث في ثلاث سنوات العديد من الحركات الانقلابية العسكرية. لكنها كانت المرة الأولى التي تطيح ثورة شعبية بأحد آباء الاستقلال.

أوصل الشارع "ماريان نغوابي" إلى السلطة، وهو أحد زملاء المخلوع في الكفاح. عندما ترددت أصداء هذا الخبر، بلغت نظرية المؤامرة لدى "أوفوي بوانيي" حد "الغرغرينا". اخترع هذه المرة

"مؤامرة القدامى"، دفعة جديدة من الكوادر الكفء وذوي الخبرة، غالبًا من زملائه في الكفاح، ملأت الزنازين الخاصة بسجن "أسابو". فقد "إرنست بوكا" رئيس المحكمة العليا السابق، حياته مخنوقًا بحبل معلق في طارد المياه بالمرحاض. حالة انتحار كما أعلنت الشرطة. حالة اغتيال، حسبما صرح المعارضون. خلال تلك الحقبة، أمر "أوفوي بوانيي" ببيع العمارة الواقعة في 150 شارع "فنسان – أوريول" لأحد أصدقائه. بالنسبة إليه، لم يعد هناك طلاب إيفواريين في "نُزُل الطلاب الإيفواريين" في باريس. فهو يعتبر هذا المكان مخبأ للمتآمرين الخطيرين، والاشتراكيين الأوغاد، وأشباه الثوريين المغتاظين، والمجندين من الاستخبارات السرية لدول شرق أفريقيا.

من خلال أموال الدولة، أي أمواله الخاصة، أو أمواله الخاصة التي هي في الأساس أموال الدولة، فما من أحد غيره، العظيم "أوفوي بوانيي"، يتعامل مع المحرضين الكسالى الذين يسعون إلى النيل من سلطته. لقد انتهى "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس". سيُطردون الجميع.

حتى إن كان "فردينان" يجد صعوبة في التركيز مع "أندريه"، كان يحب كثيرًا أن يحدثه قريبه كندٍ له. أشعره بالفخر وبث في نفسه الثقة بالذات التي لم تكن دائمًا كبيرة. في المسكن، فقط "أندريه" و"أنجيلا" هما من يحدثانه هكذا. أمَّا الآخرون فلم يتكبدوا عناء الإجابة على أسئلته التي يثيرها فضوله حول النظريات غير المفهومة التي يطلقانها طوال اليوم.

عندما انتهى "أندريه" من الحديث، أمسكت "أنجيلا" بيد "فردينان" في حركة حنان مربكة ونظرت إليه في عينيه وتحدثت معه بصوت مليء بالشغف والحميمية المعهودة بالنسبة إليه، وقالت:

- "فردينان"، ستمكث هنا وحدك. سأعود إلى "أبيدجان" في طائرة "أندريه" نفسها. لا أريد أن يولد طفلي هنا، بعيدًا عن أهلنا وأجدادنا. لا أريد أن أفعل كما الأخريات ممن يلدن هنا حتى يحصل الأطفال عند البلوغ على جواز سفر فرنسي بموجب قانون مسقط الرأس. لا علاقة لهم بهذه الأرض ما دامت أرضهم وأرض أجدادهم ما زالت بين أيدي الفرنسيين وخدامهم الأفارقة. بعد الانتهاء من رسالته، يمكن لـ"آكيه" أن يلحق بنا. أما أنا فسأغادر. أعرف أنك تريد البقاء هنا وهذا جيد لأنك اخترت ذلك. هذا اختيار العمر بأكمله وأنت لست منافقًا كالبقية بالنُزُل. أنت شخص جيد. لا تنسَ أبدًا طبيعتك الأصلية، طبيعتك الأفريقية، الشجاعة والمتضامنة. اعمل بكد وادخر الأموال. عندما يكون لديك ما يكفي من المدخرات، اترك نُزُل الطلاب، في أقرب وقت ممكن، واستدعِ خطيبتك "أودت" للعيش هنا.

في نهاية شارع "فنسان – أوريول" يقع مستشفى "لابيتيه – سالبتريار" ناحية اليسار. كان "فردينان" معجبًا بشجاعة "أندريه" الذي ينتقل من حارس للمرضى إلى حارس للعمال في مصنع "جراند مولان". كان يسير ببطء محدثًا نفسه بأنه محظوظ لأنه غير مجبر على أخذ المترو والذهاب إلى نوبة العمل.

فليس من الطبيعي أن يدفن المرء نفسه ليتنقل. في قريته، من ينزل تحت الأرض هم فقط الأموات أو الأرواح الشريرة. ترك "تشاتشا جاهيه لاجو تابيه" أبو الآلهة كلها، هذه الأرض لقريبه الشرير "ديجبو تيتي جزوا"، أمير الظلمات. كان "فردينان" يستمع، طوال طفولته، لقصص مفزعة حول "كودوهو" مملكة الأموات، الجزء المتقيح من الأرض، المخبأ الشيطاني لـ"جزوا". أصيب عند معرفته أول مرة بهذا الأمر بالرعب الشديد، ولم يستطع أن يمنع الرعشة السريعة التي تصيبه كلما أخذ السلالم المؤدية إلى داخل المترو. كان "فردينان" يستمتع إذًا بالمشي سيرًا على الأقدام للوصول إلى "جراند مولان". يأخذ دومًا الطريق نفسه. يمكن لقدميه قطع الطريق وحدهما عندما يسرح ذهنه في الأفكار والذكريات. تذكَّر "فردينان" مشهد الوداع المؤثر، وتذكر أنه كان أبيض اللون ذلك اليوم، وتحولت خدوده إلى كل درجات اللون الأحمر. كان يفتقد "أندريه" و"أنجيلا" كثيرًا.

كان عدد المقيمين في السكن "بشكل غير قانوني" مثل "فردينان" يزداد شيئًا فشيئًا، ما يعني تلقائيًّا أن عدد الطلاب "الحقيقيين" يتناقص؛ إذ يعانون جميعًا الفشل الجامعي منذ أعوام. يسارع "محبو الاجتماعات" في إعطاء دروس أخلاقية للعالم أجمع ببقائهم متمسكين بغرفهم مثلما يتمسك "الرأسماليون الكلاب" بـ"ثرواتهم الضخمة على حساب الأعداد الغفيرة العاملة"، متحدثًا بنبرة زميله "جون ماري". لا أحد يتذكر نوع الدراسة التي جاء هؤلاء القاطنون القدامى لدراستها في فرنسا. لكن، على أي حال، يعتقد "فردينان" أنهم جيدون للغاية في الاقتصاد والأعمال بكل أشكالها؛ أطلقوا تجارة مزدهرة للغاية لإيجار الغرف من الباطن ما جعل عدد قاطني نُزُل الطلاب كبيرًا ومتنوعًا بشكل متزايد. أصبح التوتر والاحتكاك شائعًا بين "السكان القانونيين" و"غير القانونيين"، بين "المستأجرين" و"المؤجرين". أصبحت الأجواء في النُزُل سلبية كالوضع في فرنسا في بداية صيف عام 1974.

تغيرت فرنسا التي عرفها منذ تسعة أشهر فقط بسرعة الطائرة التي أوصلته إلى مطار "رواسي" الجديد المسمى باسم "شارل ديجول"، الرجل الأبيض الأكثر شهرة في كل غابات أفريقيا الفرنكوفونية. ثم وقعت "الأزمة". تلك الأزمة الخطيرة التي بدت جلية في المظاهرات الأولى التي حفها الجنون والتكرار غير المسبوق لكلمة "الأزمة" التي يرددها السياسيون والصحفيون، كل بلاد "الغال" كانت تتحدث عن "الأزمة". عندما يمسك أحدهم بأي ميكروفون، أو تُدار أي كاميرا ويُكتب شيء في ورقة بيضاء، فلا يكون الحديث سوى عن "الأزمة".

بدأت "الأزمة" بالضبط بعد أسبوع من وصول "فردينان". أعلنت الدول العربية الأعضاء في منظمة "الأوبيك" أنها لن تبيع البترول لأي جهة. صرَّحت بأنها تفضل أن يفسد الذهب الأسود تحت أقدام

جمالهم بدلًا من بيعه بسعر حفنة من البلح المجفف في حين أن العالم بأسره يعلم أهميته الكبيرة. ساد الفزع في الغرب.

"ساد الخوف بين الغربيين وعلى رأسهم الأمريكيين. فكروا كثيرًا فيما سيحل بمصانعهم، وبمحطاتهم الحرارية، بصناعتهم البلاستيكية، بسياراتهم، بمحطات وقودهم، بملابسهم، بباروكات الشعر، بطائراتهم الأسرع من الصوت، بخيوط سنانيرهم، بأرائكهم برتقالية اللون، بأجهزة التليفزيون الخاصة بهم... إلخ. انتشر خوف كبير، الخوف من غياب الثلاجات عن المنازل. خوف عظيم. وكما هو الحال في هذه المواقف، تبدأ تقلبات البطن ويخرج الريح. وهنا وُلِدت الأزمة".

شرح "أندريه" مطولًا لماذا وكيف استطاعت "الأزمة" أن تنهي العصر الذهبي لـ"الثلاثين عامًا العظيمة" مستخدمًا في ذلك استعاراته الطبية المعتادة. كانت تسود الثلاثين عامًا حالةٌ من السعادة والكثير من العمل. لكن "فردينان" لم يفهم كثيرًا تلك الاستعارات. كان دائمًا في حاجة إلى ترجمة الأشياء إلى حقائق ملموسة. تسببت "الأزمة" في الكثير من المآسي حتى إن "فردينان" لم يعد يرى الأشياء الجميلة التي اعتاد أن يراها في شوارع باريس. دائمًا ما لاحظ أن الشوارع دومًا نظيفة بفضل الإخوة الماليين. استمر أولاد العم العرب في أعمال البناء طوال اليوم في العديد من المواقع المنتشرة في كل مكان، والتي أدت إلى ارتفاع المباني بسرعة تضاهي انتشار عش الغراب صبيحة يوم ممطر. كانت سلاسل محال "فليكس بوتان" و"برسنيك" تمتلئ بالكثير من الأطعمة والأدوات قليلة الأهمية. كانت الصفوف أمام ماكينات الدفع طويلة للغاية، وعربة المدخنين في المترو مليئة دائمًا بدخان السجائر وملابس عمال المصانع واللافتات الدعائية التي لا تتوانى في تكرار دعوات الاستهلاك القهري.. كلها كانت عناصر تزين المدينة بأكملها. لا، لم يتمكن "فردينان" من رؤية "الأزمة" بعينيه. ولكن كما جرت العادة كان يدَّعي أنه يفهم الشرح العلمي الذي يقوم به "أندريه". لم يتذكر سوى "الثلاثين عامًا العظيمة". ترددت أصداء هذه العبارة وجعلته يتذكر "الثلاث سنوات العظيمة" للكونغوليين. كان يفكر فقط في أن الفرنسيين استطاعوا مد فترة السعادة مدة أكبر من الكونغوليين.

بعد نهاية شارع "لاوريول" انعطف "فردينان" يمينًا ناحية رصيف "فرنسوا موررياك". كان نهر "السين" على يساره. كانت أمواجه هادئة، ولكن غامضة يحفها جو مقلق كحال نهر "جوبو - كادا" في قريته. كان الاستحمام ممنوعًا في هذا النهر.. تسكنه أرواح شريرة منذ زمن "باريبا مابيه"، ابن أخي الإله، الذي طردهم من قرية الرجال. بعد دقائق من السير، ظهر كوبري "تولبياك". مر قارب صغير تحت قدميه النحيلتين تاركًا خلفه آثار زبد البحر الذي لن يروق بالطبع للمستأجرين العباقرة القدامى للـ"جوبو - كادا" إذا ما كانوا حاضرين.

مات "بومبيدو"، رئيس فرنسا، بعد عدة أشهر من بداية " الأزمة". يقال إنه كان مريضًا وأن "صدمة البترول" كانت كالضربة القاضية له. حضر كل رؤساء أفريقيا الفرنكوفونية. في كاتدرائية "نوتردام"، نُظِّم تقليد كاثوليكي من خلال الجمهورية العلمانية الفرنسية، وحضر "جان بديل بوكاسا الأول"، الملقب بـ"إمبراطور" أفريقيا الوسطي وبكى أحر البكاء. نعم، هذا الرجل الذي قتل دون أن تطرف له عين العديدَ من معارضيه وعذب وسجن أوفرهم حظًّا منهم في زنازين قميئة، هذا الرجل نفسه يبكي ملء عينيه أمام كاميرات التليفزيون، حتى ليظن الرائي له أنه فقد والده للتو.

في بلاد الـ"بيتي"، كنا سنهنئ الرجل لكونه بكَّاءً ويعرف كيف يُظهر حزنه للعلن. في بلاد "أكان" بغانا، لتعرض الرجل للتوبيخ لأنه من غير اللائق لديهم أن يبكي المرء أقوى من أهل المُتوفَّى. لكن في باريس، ساد الإجماع بشأن موقف "بوكاسا" ولُخِّص في كلمة واحدة "جنون"! غضب الأفارقة في باريس. وشعر الطلاب الإيفواريون في النُزُل بالإهانة بشكل مبالغ فيه. وكالعادة، تمت الدعوة لعقد اجتماع قبل صياغة خطاب الاحتجاج والتعبير عن السخط للمثل الدبلوماسي لوسط أفريقيا. قرر "محبو الاجتماعات" أن يتقدموا بـ"عريضة مشتركة" مع باقي الطلاب الأفارقة في باريس. وسنرى ما سيحدث بعد ذلك. أُختير الإيفواريون لاستقبال التجمع المقدس لـ"اجتماع عموم أفريقيا حول حالة بوكاسا". بعد تأجيل الاجتماع ثلاث مرات، عُقدت القمة يوم سبت من شهر أبريل. وصلت أعداد غفيرة إلى "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس". أرسل "نُزُل طلاب الكونغو" أعظم رجاله من المحنكين ممن يرتدون أحذية برَّاقة وبنطلونات ممسوكة بأحزمة تصل إلى الصدر، سترات كبيرة للغاية، رابطات عنق طويلة للغاية تصل حتى الجزء الأسفل من الجسد. الأعناق والأصابع تزينها الجواهر الذهبية، لون البشرة أصفر بلون فاكهة البابايا، أي بشرة سوداء تغير لونها بفعل الكورتيزون. عندما طرح أحدهم سؤالًا ساخرًا على أحد المبعوثين الكونغوليين ما إذا جاء هو وبنو وطنه لحضور حفل بملابس تنكرية، أجاب بكل جدية قائلًا: "لأنه في كل المواقف وكل الأماكن، يتعين على نُزُل الطلاب الكونغوليين، معقل السابورية، أن يكونوا قادرين على تمثيل السابورية بشكل لائق".

في المبنى رقم 20 من شارع "بيرنجيه" في الحي الثالث، وسط محال الملابس التي يديرها التجار اليهود، على بعد خطوتين من محل "تاتي" الكبير في ميدان "لا ريبباليك"، أصبح نُزُل الطلاب الكونغوليين فاتيكانًا؛ أو معقلًا لدين جديد: "الساب"، أي جمعية المنشطين والأشخاص الأنيقين. مجموعة من المتأنقين - لا يستطيعون تحديد مكان "السوربون" على خريطة باريس - يصرفون أموالًا طائلة على الملابس الفاخرة، في حين أن المبنى الذي يسكنونه يكاد ينهار من قذارته.. ذلك المبني الرائع على الطراز الهوسماني المكون من خمسة طوابق، اشتراه المساهم الكونغولي ليوفِّر الراحة لأكثر الطلاب تميزًا.

جاء مندوبون عن نُزُل الطلاب من وسط أفريقيا في باريس. يقع هذا النُزُل المعروف بـ"بونيا" في بداية شارع "بونياتوفسكي" مصدر تسميته بهذا الاسم. كان هذا المبنى من بقايا المعرض الاستعماري الدولي لعام 1931، إذ سكن هناك عدد من نواب مقاطعات ما وراء البحار، مثل "ليوبولد سيدار سنجور"، نائب فرنسا وشاعر الزنوج ورئيس السنغال. لكن "بونيا" نفسه كان مبنى آيلًا للسقوط على حدود غابة منطقة "فانسن". وبسبب تاريخه العظيم، كان من يسكنه يعتقد أنه سيكون كبير شعراء أفريقيا القادم. ألم يعِش "سنجور" نفسه بين هذه الجدران المنتفخة بسبب الرطوبة التي تسببت فيها السباكة المتهالكة للمكان؟ لذا، فإن جميع سكَّان "بونيا" كانوا يستخدمون أزمنة نحوية خاصة؛ جملًا مفخمة واستعارات شعرية لا يعرف قواعدها أو استخداماتها غيرهم.

مساء "تجمع عموم أفريقيا حول حالة "بوكاسا" الكبير"، كان "فردينان" يشعر بالسعادة لأنه قضى الليلة في كابينة الحراسة بمصنع "جراند مولان" بدلًا من أروقة "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس". يعمل المصنع 24 ساعة في اليوم، ويعمل هو ثماني ساعات وأحيانًا أكثر.. كانت وظيفته هي أن يرفع وينزل بوابة الدخول الأساسية. يسجل أرقام اللوحات المعدنية لكل السيارات التي تدخل أو تخرج من الموقع. يعلم الجميع الآن. لكنَّ كثيرين - حتى الزملاء الذين يحل محلهم منذ ما يقرب من تسعة أشهر – ما زالوا يطلقون عليه اسم "الدوك"، كما كان الحال مع قريبه "أندريه". قال له زميله في المهجع "جون ماري":

- بالنسبة إلى البيض، فإن كل السود متشابهون. لم يستفد "فردينان" منذ مدة بملاحظات "جون ماري". ما فائدة الحكايات الطويلة الفارغة التي يرددها طالب مزعوم في الفلسفة بنصف دوام ومدمن كحول بدوام كامل.

لم يضايقه أن يتشبَّه بقريبه النابغ. لم يسبب له الحرج أن يخلطوا بينه وبين "أندريه"، حتى إن كان ذلك بسبب مجموعة من الكليشيهات العنصرية والتجاهل والكسل الفكري. لا، إن المسألة لا تتعلق بلون البشرة، فالانتباه الذي يوليه الكثيرون له سريعًا عند رفعه حاجز الدخول يعلم أنه متعلق بعمله كحارس. الأهم بالنسبة إليه كان أمرًا مختلفًا تمامًا؛ الأهم هو ارتداء ملابس المسؤولية الجديدة التي يتحملها: حذاء أسود جميل، وزي أزرق رائع، وطاقية بيضاء ذات واقٍ للوجه. كان يشعر بأهميته لأول مرة في حياته. أول مرة في حياته يجني من خلال عمله المال الذي يحتاج إليه ليعيش. أول مرة في حياته، لا ينتظر مساعدة من "أخ"، من "عم" أو من "عمة" أو من أي شخص آخر في العائلة للقيام بما يرغب فيه، أو السفر إلى مكان ما أو أكل شيء معين عندما يرغب في ذلك. ما أجمل هذا الشعور بالاستقلال. حافظ "فردينان" على الوعد الذي قطعه لـ"أنجيلا"؛ لن يخسر وسيعمل بجد. وما دام قد رحل "أندريه" وعاد إلى القرية، فالجميع ينتظر منه أخبار فرنسا. أخذ الشهر الماضي صورة لنفسه بزي الحارس وأرسلها

إلى "أودت". يبدو أن الصورة زارت كل أسرة من أسر القرية. اعتقد الجميع أنه أصبح ضابطًا لدى البيض.

بدا رصيف "بنشار – لوفاسور"، في الناحية الغربية لمصنع "جراند مولان" للدقيق، غريبًا بسبب بلاطه الأسود. داعبت أنف "فرديان" رائحة النبيذ النفاذة الصادرة من مستودعات "بيرسي"، تصحبها رطوبة خانقة من نهر "السين" الذي تعبره رائحة النبيذ. لا يحب هذه الرائحة، فهي تذكره بالروائح الخانقة والعطبة التي أثارتها الانتخابات التي تبعت وفاة "بومبيدو". تقدم للانتخابات الرئاسية عشرة رجال صلع ورجل أعور وسيدة دميمة، وحتى لو أصبحت صلعاء وعوراء فلن يختلف الأمر كثيرًا. كان لديهم جميعًا بالطبع حلٌّ للأزمة.. والشعار الأشهر في ذلك الوقت، هو: "ليس لدينا بترول، ولكن لدينا أفكار". أحد هذه الأفكار هو أن الأجانب قد كثر عددهم في فرنسا. خلال "الأزمة" انتزع هؤلاء العمل من الفرنسيين الحقيقيين وسرقوا منهم فرصة الاستحمام في الدش؛ أو سرقوا الخبز من أفواههم. أصبح الأمر لا يُطاق، خصوصًا ممن دعوناهم بلطف إلى تقاسم الكعكة الكبيرة للسنوات الثلاثين العظيمة والعمل بطاقة كاملة. لا يُطاق حقًّا. ذهبت السلطة إذًا إلى من وجد أفضل "فكرة" لوقف النزوح الكبير لجحافل الأجانب الناكرين للجميل. تحدث المرشح الأصلع لحزب الوسط عن "التفضيل الوطني". راقت هذه الفكرة للكثير من الفرنسيين، بل وللمرشح الأعور من اليمين المتطرف الذي جعل من حزب الوسط حصانه السياسي في المعركة. كان مرشح اليسار الأصلع يتحدث عن إنسانية القلب، إلا أن مرشح الوسط الأصلع كشفه أمام ملايين المشاهدين السعداء بالرد عليه بعنف أن الأمر ليس حكرًا عليه. عرف "فرديان" - بفضل "أنجيلا" و"أندريه" - أن مرشح اليسار كان وزيرًا للمستعمرات. كان الناجون من مدغشقر والكاميرون من الثورات المقموعة يتذكرون جيدًا حسه الإنساني وعاطفته. لم يحب "فرديان" المنافقين وكان سعيدًا لأن الأصلع اليساري أُحرِج على الملأ. وعليه، فاز "جيسكار ديستان" في الانتخابات في شهر مايو. عيَّن وزيرًا للداخلية يُدعى "بونياتوفسكي"، الذي أعدَّ فيما بعد "بطاقة الإقامة ضد الأجانب" ووقع مرسومًا يمنع لم شمل عائلات الأجانب بنهاية الصيف التالي لذلك. في مبنى "بونيا" كان الحديث دائرًا حول تغيير اسمه. لوحظت علاقة القرابة بين وزير "جسكار" والبولندي "بونياتوفسكي"، مشير فرنسا والملقب بـ"مارشال إمبراطورية نابليون". انطلقت الكتابات العاطفية والاستعارات والكنايات من الغرف الرطبة والممرات الوسخة في "بونيا"، لسب القرار الشرير الذي اتخذه سليل المهاجرين.

قال أحد قاطني "بونيا" من مدينة "بنين" والمهووس بالربط بين الكلمات بلغة رنانة كصوت الكاتب "مالرو":

- إذا كان هذا الرجل فرنسيًّا اليوم، فذلك لأن والده مات وهو يدافع عن فرنسا. بالطبع، مات برصاصة في الظهر في المعركة وهو ما يعني أنه كان يهرب عندما هاجمه العدو، إلا أنه وقبل أن يهرب كان يدافع عن فرنسا الأم. نحن أيضًا فقدنا آباءنا تحت راية فرنسا. وقفوا في مواجهة النار والحديد اللذين هددا الوطن الأم. تلقوا بصدورهم طلقات العدو لتعيش فرنسا خالدة.

وافقه في الحديث شخص من "توجو" قائلًا:

- حدث ذلك مرتين لنكون دقيقين.

- لا يجب أن تلقي بالادعاءات أمام من يعلمون الحقيقة. على عكسنا نحن من "سانت لويس" من السنغال، فإن هؤلاء، أمثال "بونياتوفسكي" وغيرهم، ليسوا فرنسيين منذ زمن بعيد، وهو ما يفسر هذه الحماسة التي يمتلكونها.

أثار تصريح هذا السنغالي من قاطني "بونيا" بعض الهمهمات الموافقة والكثير من إيماءات الرأس الداعمة.

أضاف مالي آخر:

- يومًا ما سيصبح أحد أبناء المهاجرين رئيسًا للبلاد وسيطرد كل الأجانب.

صاح آخر بصوت حماسي:

- "بونياتوفسكي"! عندما يحمل المرء مثل هذا الاسم صعب النطق ويكون ملونًا وهجينًا من سريلانكا وأذربيجان، لا يجب أن يعطي دروسًا في الروح الفرنسية لأبناء "سنجور".

كانت هناك أيضًا لعنات بلغة النيجر. تسبب هذه اللعنات، وفقًا لترجمة جار من الهوسا، إسهالًا دمويًّا وضمورًا في الخصى لكل الرجال سليلي "بونياتوفسكي" حتى اليوم الذي سيحوِّل فيه نهر النيجر مجراه إلى جبال "فوتا جالون" بدلًا من أن يصب في الأطلسي.

على الرغم من هذه الخطب العظيمة في "بونيا" وفي جميع المدن الجامعية للسود في باريس، لم يفوِّتْ أحد موعد الذهاب إلى مبنى المحافظة للحصول على "بطاقة الإقامة السحرية". أما "فردينان" فكان مندهشًا من أن رجلًا سياسيًّا قد حافظ على كلمته. وصوَّت سريعًا على القوانين الجديدة المنظمة لحياة الأجانب في الجمعية الوطنية، والتي رحبت بها كل الأطياف السياسية. ضربت كلمته الشهيرة «احتكار القلب» في خطابه كل الأوساط السياسية، إلا أن من لم تنطبق عليهم الشروط الجديدة للإقامة لم يُترَكوا في العراء. وبين ليلة وضحاها، ظهرت فئة جديدة من المواطنين: «دون أوراق رسمية».

من حسن الحظ، عمل "فردينان" بنصائح "أنجيلا" و"أندريه". ستصل "أوديت" بعد أربعة أيام، أي قبل أسبوعين فقط من تطبيق القوانين الجديدة لفريق "ديستان". وجد "فردينان" بالفعل مكانًا لائقًا لاستقبال خطيبته القادمة من القرية. ظل في أثناء ذهابه إلى عمله يتحسس جيب معطفه ليتأكد من الورقة التي وقَّعها ليلتها. هذه الورقة ليست سوى عقد إيجار وقَّعه للحصول على شقة صغيرة في الحي السابع عشر شارع "كندامين" بالقرب من السكة الحديد لمحطة "سان لازار". كان يشعر كما لو أنه بُعث من جديد. هذه هي نهاية الاجتماعات، نهاية الممرات الطويلة التي يقطعها في كل المواسم وهو يحمل بين يديه أوراق التواليت للذهاب إلى المرحاض. هل سيأخذ المترو للذهاب إلى العمل؟ نعم، سيعتاد الأمر. تحتوي الشقة على غرفة، وصالون، ومطبخ، وغرفة استحمام، ومرحاض. سيحصل "فردينان" على منزل له. أخيرًا، وجد فرنسا التي كوَّن عنها فكرته الخاصة بها. قرر مع صديقته "أوديت" أن يكونا أسرة. ومهنة الحارس كانت وظيفة جيدة لذلك.

وصل "فردينان" إلى مصنع "جراند مولان".

"سيفورا"-"الشانزليزيه"

"الشانزليزيه". محال، محال لشراء الملابس، سوبرماركت، محال تجارية وفنادق وسلاسل مطاعم.. إذا كان هذا الشارع هو الأجمل في العالم فالحارس في هذه الأحوال يُعتبر بائع زهور، وفني تبريد، ومتخصص في العلاج بمياه البحر لدى شعب "الإنويت".

رجال يرتدون الأسود. في "سيفورا" فرع "الشانزليزيه"، يرتدي الحارس سترة سوداء وبنطالًا أسود وقميصًا أسود ورابطة عنق سوداء. ما يُطلق عليه "رجال يرتدون الأسود". يعمل الحارس في فريق مكون من أربعة ورئيس حراس يجلس أمام شاشات تبث الكثير من الصور نقلًا عن الأربعين

كاميرا المنتشرة في المحل. يحمل لا سلكيًّا متصلًا بسماعات أذن شفافة. الحارس الفاخر للشارع الفاخر.

يتواصل حراس "سيفورا" فيما بينهم من خلال سماعات الأذن ويتتبعون المشتبه بهم واللصوص المحتملين عن طريق نظام من الأكواد التي تتبع نظام ترقيم معين للتعرف على أنماط وجوههم.

(n+1) j:

N: عدد طبيعي.

3J: عربي.

4J: زنجي.

J5: قوقازي.

J6: آسيوي.

لا يجرؤ الحارس أن يسأل في أي فئة يصنف المختلطون

J4.5:زنجي قوقازي

J3.6:عربي آسيوي

J6.4:آسيوي زنجي

يعتقد الحارس أنه في البرازيل، ونظرًا إلى المعدل غير المعقول لاختلاط الأجناس، يجد زملاؤه هناك صعوبة أكثر تعقيدًا في وصف الناس من خلال ملامحهم. يُقال هناك إن الرب قد خلق الإنسان، وأن البرتغالي قد خلق الرجل المختلط.

أ ر غ م((3)). تتحول بائعة العطور في "سيفورا"، بسبب تعرضها لخليط كبير من الروائح طوال اليوم، إلى "الفتاة ذات الرائحة غير المحددة".

ر ح ر غ م((4)). على غرار البائعة، يتعرض الحارس للكثير من العطور طوال اليوم. وهو ما يجعل منه "رجلًا له رائحة الحارس غير المحددة".

ريح. يبحث الحارس دائمًا عن صفة ليصف بها خليط الروائح الناتج عن ريح نتن مثير للغثيان صادر من قسم العطور المخصصة للسيدات.

- الاستحمام.. رائحته جميلة جدًّا. لن أغسل يدي منها أبدًا.

قالها مراهق. بعد أن أغرق نفسه حرفيًّا بالعديد من زجاجات العطور المعروضة.. هناك العديد من الزجاجات المعروض للتجربة مجانًا، لذلك فإن الاستحمام بالعطور هو الرياضة الأكثر انتشارًا في "سيفورا". ليس من النادر رؤية أشخاص يرشون أنفسهم بكل ماركات العطور المختلفة مرة واحدة قبل أن يرحلوا وهم يشعرون بالابتهاج.

"سيفوراااااا" أو "سيفووووووورا". يُعتبر "سيفورا" فرع "الشانزليزيه" أحد أكبر المحال في العالم. من الشائع جدًّا أن تسمع الناس وهم يصرخون بصوت عالٍ عند مرورهم أمام المحل، كما لو أنهم قد رأوا شخصًا يعرفونه منذ زمن وسيلقون بأنفسهم بين يديه قائلين: "سيفوراااااا" بالفرنسية، أو "أوه ماي جاد! سيفووووورا" بالإنجليزية.

- سيفورااااجه.

في الواجهة، توجد سجادة حمراء تشبه اللسان. في الداخل، طُليت الأعمدة بخطوط لونها أبيض وأسود. من بعيد، تشبه هذه الأعمدة الأسنان الحادة. مدخل "سيفورا" هو فم وحش يتثاءب ناشرًا عطوره المختلفة في "الشانزليزيه".

بار. بار الهدايا أو "جيفت بار"، "بار الميكاب"، أو "كير بار". نعم صحيح. يوجد كحول في مكونات العطور.

"إيمي واينهاوس". تدخل سيدة تشبه "إيمي واينهاوس" بشكل مُذهل. تساءل الحارس أكانت ستتجه إلى زجاجات العطور لتشربها بدلًا من تجربة العطور على جلدها.

مكة. نظرًا إلى المسجد الموجود به والمكتبات الإسلامية، ومحال الملابس والحجاب الإسلامي، ومحال الجزارة الحلال، يُطلق على الجزء العلوي من شارع "جون - بيير تيمبو" بـ"جلال آباد".

خلال ثلاث ساعات فقط من الفراغ، لاحظ الحارس عددًا من النساء المحجبات في "سيفورا" يزيد ست مرات عن عددهم في شارع "بيلفيل" بما في ذلك "جلال آباد".

"سيفورا" هو القِبلة وقسم "كرستيان ديور" هي المركز الذي يدور حوله النساء عربيات كن أو غير عربيات، محجبات كن أو غير محجبات، تمجيدًا للعطر المقدس.

زوجة الأمير. دخلت مغطاة من رأسها وحتى أخمص قدميها بنقاب أسود. بالكاد تمكن من رؤية قدميها ذات الحذاء عالي الكعبين من الجلد اللامع وفوقهما بنطلون جينز يمكن أن يتخيل بأنه ضيق للغاية. رافقتها خادمة ومساعد وحارس شخصي. يسهل تعرُّف دور كل واحد منهم. تحمل الخادمة - التي يبدو من ظاهرها أنها فلبينية ويمتلئ وجهها كما هو معتاد معهن بالبثور - كل حقائب المحال الفاخرة التي تبدأ من ميدان "فندوم" حتى "الشانزليزيه". يحمل المعاون لها، وهو مخنث، حقيبة يديها تحت إبطه، ويحمل بين أطراف أصابعه بطاقة الائتمان؛ أما الحارس الشخصي فهو الذي يحمل المظلات الثلاثة ويتبعهم دون توقف.

"سيفورا أرابيا" - حفلة المحجبات. "سيفورا" من أكثر الأماكن التي يرتادها العرب من كل بقاع الأرض، سواء من فرنسا أم غيرها، من باريس أم من ضواحيها، رجال أم نساء، أغنياء أم فقراء، شباب أم كبار سن، رعاع أم أمراء، وهو ما يفسِّر مواكب السيدات المحجبات الكبيرة به.

يرتدين هذا الحجاب بأساليب مختلفة، أسود اللون أو ملون، قطعة واحدة أو عدة قطع، شفاف أو غير شفاف، أكمام طويلة أو أنصاف الأكمام، وجه مغطى بالكامل أو يكشف جزءًا من الوجه.

هوس بكل ما هو أمريكي. زوج من العرب.. يرتدي الزوج "تيشيرت" مرسوم عليه خريطة كاملة لمترو نيويورك. تغطي السيدة جسدها بالكامل وترتدي عباءة رمادية اللون مطبوع على قماشها صورة عشرة دولارات أمريكية. على كوعها الأيسر يسهل قراءة شعار الولايات المتحدة الأمريكية: "نثق بالرب".

" in God we trust."

رجال يرتدون الأسود ونساء يرتدين الأسود. في المتجر، الحراس هم الرجال الذين يرتدون الأسود، أما النساء المحجبات فهن السيدات اللاتي يرتدين الأسود. من الممكن أن يشكلوا أزواجًا متناغمة للغاية. "أيها الحراس وأيتها السيدات المحجبات في العالم، اتحدوا!".

"كوني أيقونة". تجثو سيدة ترتدي الحجاب الأسود الكامل على ركبتيها أمام منصة "ديور". فوق رأسها، تضيء عبارة دعائية تقول: "مدمنو ديور، كونوا أيقونات".

لبس. ترتدي السيدة الحجاب بشكل كامل تمامًا وتخفي تحته أصابع أحمر الشفاه وأقلام تحديد العيون. يعتقد الحارس أنه اكتشف للتو جنحة سرقة مع تلبس.. إلا أنه يلاحظ في اليد الأخرى للسيدة مرآة مغطاة بملابسها مع منتجات أخرى. هذا أول مشهد لوضع الماكياج تحت ستار.

أب - ابنته. أب عربي (ربما سعودي، كويتي، قطري، مصري...) يلعب مع ابنته ويقذفها في الهواء ثم يلتقطها مرة أخرى. الفتاة الصغيرة جميلة يتطاير شعرها في الهواء ويضحك الاثنان بصوت مسموع. تبدو السعادة عليهما، لا يستطيع الحارس أن يمنع نفسه من التساؤل هل سيجبر الأب ذاته ابنته على أن تتغطى كليًّا يومًا ما.

نظرية شهرزاد. منذ آلاف السنين، كانت الحمامات هي أولى مراكز العناية بالجسد والجمال. يجد فن التزين كما نراه اليوم أصوله في الثقافة العربية، الماسكارا، الكحل، الحنة، زيت الأرجان، الحجر الخفاف، أحمر الشفاه. جلبتها الحملات الصليبية من الشرق، فقد كانوا سعداء لمقابلة نساء رائحتها خلابة وشعرها منسدل دون قمل، وعيون مرسومة بدقة وخدود مخضبة بلون آخر غير لون طحين القمح. في "ألف ليلة وليلة"، كانت شهرزاد تمثل المرأة الأنثوية الجميلة. اليوم، قد تصبح شهرزاد الممثلة الأفضل لماركتي "لوريال" أو "كريستيان ديور".

خليج البدانة. الرجل العربي، سواء من البحرين، قطر، الكويت، الإمارات العربية المتحدة، المملكة العربية السعودية، رجل الخليج العربي، أيًّا ما كانت هيئته، فهو لديه على الأقل علامة واحدة من علامات البدانة. هناك واحد من بين كل رجلين يعاني السمنة.

إن أجساد البدو ممن عاشوا آلاف السنين في ظروف الصحراء الصعبة قد اعتادت الاحتفاظ - أطول وقت ممكن – بما يأكلون. يخزنه الجسد في صورة مخزون دهون. لم يكونوا مستعدين بعد للسمنة التي جلبها البترول والتدفق الغزير للدولارات. فالغذاء الذي أصبح غنيًّا ووفيرًا يتحول سريعًا إلى مخزون دهون في الجسد. لا يمكن أن نهدم 30 عامًا مما صنعته الطبيعة في 3000 سنة.

الحمد لله. تجشأت امرأة "غير محجبة"، شعرها أصفر مصبوغ وترتدي ملابس مسائية جميلة، بصوت عالٍ يمكن تمييزه عن الأصوات المحيطة. ثم قالت "الحمد لله" عندما لاحظت أن الحارس قد رآها.

عندما انتشر الإسلام بين البدو، كان من النادر إعداد طعام دسم يسبب هذا التجشؤ. لذا، فالمرات التي كان التجشؤ فيها ممكنًا بعد الطعام كان لا بدَّ من شكر الرب على هذه المعجزة.

من مركز تجاري إلى آخر. تَرْكُ دبي، مدينة المراكز التجارية، والقدوم إلى باريس لقضاء إجازة والتبضع من "الشانزليزيه" شارع المراكز التجارية، كل هذ يؤكد أن البترول يسمح لنا بالسفر بعيدًا، ولكنه يضيق أفقنا تمامًا.

"التيشيرتات" تتحدث. يبدو أن "التيشيرت" أصبح وسيلة تعبير عن الموضة؛ على الصدور - سواء بأثداء أم لا - على الظهر - أم لا - عبارات، أو كلمات وشعارات وأحيانًا قناعات حقيقية تلعن العالم المحيط.

"شيء صغير جميل". ترتديه سيدة شقراء، شعرها طويل، لها ملامح سكان الشمال، ولا يقل وزنها عن 120 كيلوجرامًا وطولها 190 سم.

"إن النسور لا تطير مع الحمام". يرتديه رجل أسود شاب متشبه برجال العصابات ومغنِّي الراب. لا يبتعد عن صديقته خطوة واحدة.

"هي تقول لا للفتيان". ترتديه سيدة بمفاتن باهرة وخطوات خليعة بشكل مبالغ فيه. إذا كان ما هو مكتوب على "التيشيرت" حقيقيًّا، فالحارس يعرف أفارقة يمكنهم أن يرسلوها إلى ساحر يفك عنها هذه التعويذة.

“أنا سمراء ولست غريبة أطوار”. ترتديه فتاة سمراء قصيرة الشعر وطريقة سير ذكورية.

“شيء واحد جيد بشأن الموسيقى، عندما تضربك لا تشعر بالألم”. جملة لـ”بوب مارلي” كُتبت على “تيشيرت” يرتديه مراهق ويصل حتى ركبتيه.

“لا تفرط في شرب الخمر، احتسِه فقط”. كُتِبت على “تيشيرت” فتى طويل أشقر يتحدث لغة بلكنة سلافية.

“أنا أضرب كالصبيان”. ترتديه فتاة آسيوية ضئيلة الحجم.

“الأفضل أن تحصل العاهرة على نقودي”. عبارة قالها مغني راب من نيويورك اسمه “جا رول”. يرتديه فتى أبيض يرتدي الملابس المعتادة لمغني الراب في الثمانينيات.

“هنا باريس، اللعنة على مارسيليا”. طفل أشقر يبلغ من العمر 11 عامًا بصحبة والديه الشابين.

الحجاب والقلنسوة. من المحظور الدخول إلى المحل عندما يرتدي الشخص قلنسوة على رأسه، ولكن أليس من المسموح الدخول بحجاب حتى إن كان حجابًا كاملًا. ما الحل إذًا عندما تدخل فتاة شابة ترتدي قلنسوة فوق الحجاب؟

انجذاب الأقطاب المتنافرة. دخل رجل أبيض طوله متران و10 سم، شاحب الوجه للغاية، شعره مصبوغ بالأصفر الفاقع، ويمسك في يديه سيدة سوداء البشرة ويصل طولها إلى متر و50 سم. كانت السيدة حاملًا “منتفخة للغاية” وهو ما عزز من عنصر التناقض بين الخصية المترهلة المعلقة في قضيب لا حدود له. يتحدث الرجل وهو ينظر أمامه دون أن يخفض رأسه أبدًا. وتجيبه المرأة دون أن ترفع رأسها أبدًا. لا أحد منهما يرفع صوته على الرغم من الارتفاع الذي يفصل بينهما. لا بدَّ أنهما يحملان هواتف أو سماعات أذن مخفية للتواصل على هذا النحو، فالأمر مستحيل مع الضوضاء التي تملأ المكان.

حوار

- سيدي، سيدي، من فضلك، أنا لا أجد ابنتي، هل يمكنك مساعدتي لإيجادها؟

(عجوز مذعورة تتحدث مع الحارس).

الحارس:

- صفيها لي سيدتي، من فضلك.

- شقراء شعرها قصير، اسمها "ماريون".

(العجوز مذعورة أكثر).

الحارس:

- اهدئي سيدتي، سأعلن التفاصيل الآن. كم عمر فتاتك؟

العجوز:

- 40 عامًا!

الحارس:

- سيدتي، في هذا السن لا نضيع داخل متجر ما!

قالت السيدة العجوز وهي تكاد تبكي:

- حضرتك لم تفهم. يا سيدي. أنني أنا التائهة.

التاتو مقابل الحنة. على الأجساد، تحتدم المعركة بين التاتو والحنة.

قابل للكسر. كما هو الحال بالنسبة لتغليف الشحنات القابلة للتلف، لدى سيدة قصيرة الشعر تاتو علي عنقها، عند مؤخرة الرأس، بين سي 3 وسي 4: "قابل للكسر". عبارة ملائمة تماما! سي 3 وسي 4، هي فقرات العنق في مؤخرة الجمجمة. وهي فقرات ضعيفة للغاية. أقل كسر يمكنه أن يقطع الحبل الشوكي مباشرة. النتيجة: شلل لا علاج منه و/أو وفاة بسبب تدهور الخلايا العصبية.

شفرات مرقمة. تضع فتاة شابة تاتو عبارة عن شفرات رقمية. إغراء كبير لنمرر مسدس قراءة الشفرات الرقمية الخاص بخزينة الدفع على رقبتها لمعرفة ثمنها.

تاتو أسود. بسبب صعوبة التمييز بين الحبر الأسود للتاتو ولون جسد صاحب التاتو، يشبه التاتو لدي أصحاب البشرة السوداء المرض الجلدي. ويضاف إلى ذلك، طبيعة أجساد أصحاب البشرة السوداء التي تكون ندوب من الجروح، فتعطي انطباعًا بأنها ثلاثية الأبعاد.

كريم أساس. "التان" هو لون البشرة الأصلي. لكن، ما هو إذًا "الفون دو تان"؟ يا له من تعبير مضحك.

بوبي براون وبوبي براون (الاختلاف في كتابة الحرف الأخير باللغة الإنجليزية). الأولي هي علامة تجارية أمريكية مشهورة لكريم الأساس.

"بوبي براون" هو مغني أمريكي مشهور بضربه المبرح وبشكل دوري لزوجته، المغنية "ويتني هيوستن"((5)) نفسها، التي لطالما صرخت بأعلى صوتها وهي تغني: "I will always love you"

"بوبي براون" هو الزوج المثالي للاستهلاك الكبير لمنتجات "بوبي براون". إذا أوفت زوجته "ويتني" بوعدها، يستطيع هذا الرجل أن يحصل على لقب الممثل التجاري لهذه العلامة التجارية مدي الحياة.

التلاعب بالكلمات. في صناعة منتجات التجميل، التلاعب بالكلمات منتشر للغاية:

Dior J'adore

Cargo, the big bronzer

Eau dIssey miyake

The POREfessional

BeneFit

Posie tint

Diesel Fuel for Life

Dande lion…

عندما تنقصنا الكلمات، نجد مكتوبًا حرفيًا على العلب.

نعم للطماطم yes to tomatoes

كريم للبشرة Crème pour la peau

حقًا رائعة vraiment formidable

ديزل، وقود مدى الحياة. نرى على اليافطة الإعلانية صورة شاب صغير، فمه فاغر، قميصه مفتوح ليبرز عضلات صدر بارزة، نرى من سحاب بنطلونه المفتوح زجاجة عطر. عنق الزجاجة يشبه قضيب معلق علة خصية وحيدة، غير متناسقة موع حجم الزجاجة نفسها.

حوار

سيدة ثلاثينية مخاطبة صديقتها الساخرة:

- قال لي إنه "ازدواجي الجنس" واعتقدت أنه لا يريد الاعتراف بـ"مثليته".

الصديقة:

- إذًا؟

ردت الصديقة بإشارة واضحة بذراعها:

- كان انتصابه هائلًا.

الصديقة:

- لاااا! حقًّا؟ ثم...

- انقض عليَّ كما لو كان قد خرج لتوه من السجن.

- لااااا.

ضحكت السيدات عاليًا أمام اليافطة الإعلانية التي تقول "وقود ديزل مدى الحياة".

"تشاتشو" و"كباكباتو". يُطلق لفظ "تشاتشو" على الأفارقة السود من النساء والرجال الذين يجعلون لون بشرتهم أفتح بطريقة صناعية. هؤلاء "المتدربون البيض" أو "ذوو البشرة الفاتحة - الغامقة" يقعون دائمًا فريسة أجزاء من أجسادهم التي تتمرد على عملية التبييض تلك وهذه الأجزاء تكون مفاصل الأصابع. لذا نطلق على هذه الأجزاء من الجسم، "الكباكباتو" أو الخونة.

شاهد الحارس سيدة من "تشاتشو" ولكنها ماكرة ترتدي القفازات. لذا من المستحيل الحكم على هذا الشحوب البالغ الذي نادرًا ما يجتمع مع هذا الوجه الخاص بشعب "البانتو" الأسود. يتبعها صبي في العاشرة من عمره يشبهها تمامًا، لكنه أسود بلون الفحم، وهو ما فضح "التشاتشو".

الدرس المستفاد: يُعتبر النسل من نوعية "كباكباتو" جيدًا لكشف "التشاتشو".

منطقة الاستثارة "جي". ترتدي "التشاتشو" بنطالًا رياضيًا من القطيفة الوردي. كُتِب اسم ماركة الزي المثير للسخرية الذي ترتديه على المؤخرة بالحروف الإنجليزية المتلألئة من الماس الصناعي: "كرستيان أوديجي". يحيط حرف "الG" بفتحة المؤخرة محولًا إياها إلى هدف للتصويب.

"فلوكو 1". دخلت امرأة بيضاء إلى المحل ومعها حقيبة مرسوم عليها صورة طاقية شاشية كبيرة حمراء.

وقت الاستعمار. كان الحراس أو "حراس الدوائر الإدارية" من الأفارقة الحمقى، الهمجيين، الشرسين والمتحمسين لتنفيذ أوامر أسيادهم البيض.

"فلوكو" بلغة "البامبارا" تعني الحقيبة الصغيرة. "القلفة"، وهي تشبه الحقيبة الصغيرة في طرف القضيب، وتُسمى بـ"الفلوكو" أيضًا. تُستخدم هذه الكلمة مجازيًّا أيضًا لوصف الشخص غير المختون في البلدان الذي يُعتبر الختان فيها شعيرة أساسية للعبور إلى سن البلوغ وتحمُّل المسؤوليات الفردية والجماعية، ويُعتبر هذا الوصف بشكل خاص سبة. وبسبب كره السكَّان الحراس؛ لوحشيتهم واستغلالهم، أطلقوا عليهم اسم "حراس الفلوكو". وكانوا يرتدون شاشية حمراء.

"فلوكو 2". يُعتبر الزنجي من "بانانيا" بالشاشية الحمراء التي يرتديها، "حارس فلوكو". خلف ابتسامته الواسعة، يخبئ مطرقة منحوتة من الخشب الأكثر صلابة في الغابة ومدهونة بالجير الأبيض حتى تكون مرئية من بعيد وحتى تذكرنا دائمًا بلون الرجل الذي أعطى أوامر بالضرب على الرأس أو الظهر أو المؤخرة. ربما يفسر هذا لماذا لم تحقق بودرة الكاكاو نجاحًا في المستعمرات كما هو الحال في العاصمة.

"فلوكو 3". يسأل رجل أسود يتحدث الإنجليزية بلكنة أمريكية قوية للغاية، الحارس عن مكان محل عطور "جيرلان"، ويحمل على ظهره حقيبة مكتوب عليها اسم ماركة الملابس المعروفة: " compotir des cotonniers".

في عصر آخر، كان يمكن لهذا الرجل أن يكون "العم توم"، النسخة الأمريكية الأقل عنفًا، ولكن الأكثر حماسة من "الحارس فلوكو".

طلاء شفاه أبيض. تضع سيدة سوداء طلاء شفاه لونه أبيض. وهو ما يعطي انطباعًا بأنها مصابة بشيء ما، وأن ما على شفاهها صديدًا.

شفرة الألوان. يمتد المحل طولًا، فالأعمدة ذات اللون الأبيض والأسود تجعلنا نفكر في حَكَم كرة السلة الأمريكية. على اليمين، لون برتقالي مخصص لعطور الرجال. على اليسار، اللون الوردي لعطور النساء. في الداخل، الأخضر مخصص لمنتجات العناية بالجسد والوجه. يُسمى هذا الجزء بـ"البراري"، بسبب لونه وماركة منتجات التجميل السويسرية، "لابريري" التي تبيع المنتج الأعلى سعرًا في المحل: كريم 100 مل بـ900 يورو.

بقرة في المرعى. دخلت سيدة طويلة القامة، بأفخاذ ومؤخرة وأثداء ضخمة للغاية وترتدي ملابس ضيقة للغاية منقطة بالأبيض والأسود. أنفها مثقوب وبه حلقة كبيرة في شفتها العليا، وتمضغ علكة وهي تنظر بثبات ومطولًا إلى برطمان من كريم "لابريري".

في شؤون البقر. بالطبع، هناك مستويات أكثر تطلبًا في مهنة الأمن، فالحارس بالنسبة إلى مجال الأمن كجبنة "لافاش كيري" بين الأجبان.

"فينوس هوتينتوت". دخلت سيدة بيضاء ضخمة المؤخرة، وجهها جميل وطفولي، وهي نسخة مربكة من الشهيرة "فينوس هوتينتوت". إذا كان هناك الكثير من البيض مثلها، لما تحولت المسكينة "سارتجي بارتمان" إلى حيوان للعرض في حدائق الحيوانات البشرية البغيضة في أوروبا خلال القرن الماضي ولما انتهت حياتها على طاولة التشريح الخاصة بمتحف التاريخ الطبيعي في باريس.

"شيواوا" والرجل الصغير في المحل. دخل رجل عجوز يمسك بسلسلة ملتفة حول رقبة كلب "شيواوا" ضخم ورجل صغير. يلتف الطوق حول رقبة الكلب. ونهاية الطوق حول حزام بنطلون الطفل. أمام نظرة الحارس المتعجبة، غمز الرجل موضحًا: "إنه حفيدي، يعاني فرط الحركة، ولدي شهادة طبية بذلك!"

عندما تصفر البوابة الإلكترونية. تصفر بوابة الأمن الإلكترونية عندما يدخل أو يخرج شخص ما وهو يحمل منتجًا به دبوس الحماية الممغنط. هذه حالة اشتباه سرقة، ولكن 99٪ من الحالات يكون المنتج قد دُفع حقة كاملًا. لكن من المدهش رؤية الجميع يمتثل لإنذار بوابة الأمن. لا أحد يكسر هذه القاعدة. لكن ردود الأفعال تختلف وفقًا للجنسيات أو الثقافات.

- الفرنسي يتلفت في الاتجاهات كافة ليتأكد من أنه مصدر هذا الصوت أو، كعلامة على تعاونه، فهو يبحث أيضًا كالجميع.

- الياباني يتوقف تمامًا وينتظر الحارس.

- الصيني لا يسمع أو يدعي ذلك، ويستكمل سيره بشكل طبيعي تمامًا.

- الفرنسي من أصل عربي أو أفريقي يصرخ مدعيًا وجود مؤامرة أو جريمة تنميط عنصري ضده.

- الأفريقي يشير بإصبعه في اتجاه صدره كما لو كان يطلب تأكيدًا بأنه هو مصدر الصوت.

- الأمريكي يتحرك مباشرة نحو الحارس ويبتسم نصف ابتسامة ويفتح حقيبته.

- الألماني يأخذ خطوة إلى الخلف ليتأكد مما إذا كان الأمر سيتكرر.

- العربي الخليجي يتوقف بأكبر قدر ممكن من العجرفة.

- البرازيلي يرفع يده عاليًا.

في أحد الأيام، فقد رجل ما وعيه تمامًا.. حتى إنه لم يستطع أن يفصح عن جنسيته.

"قفص فاراداي". للهروب من الموجات الكهرومغناطيسية للبوابة ومن ثَمَّ من الحراس، أفضل وسيلة هي وضع البضاعة المسروقة في "قفص فاراداي". وهناك طريقة أسهل وهي أن يبطن الشخص حقيبته بطبقة - أو طبقات - من ورق الألومنيوم؛ لكن حينها ستبدو الحقيبة صلبة وستكشف عين الحارس المدربة هذا الخداع. في حالة الشك، يمكنه أن يشغل بنفسه الإنذار ليضع يده على من يستخدمون قوانين "مايكل فاراداي" بدلًا من استخدام بطاقاتهم البنكية في الشراء.

"ديور جادور 1" (أعشق ديور). يجذب هذا العطر بشكل ممنهج وقوي للغاية السيدات العربيات، والصينيات، ومن أوروبا الشرقية. هناك سباق يومي وغير رسمي في المحل بين السيدات اللاتي يشترين "ديور جادور". بالأمس، كان النصر من نصيب الإمارات العربية المتحدة بسلة شراء ممتلئة لسيدة.. بها منتجات "ديور جادور" بـ1399.67 يورو من إجمالي منتجات بـ3456.85 يورو.

"ديور جادور 2". رقبة طويلة محاطة بعدد كبير من الحلقات الدائرية بلون النحاس وفوقها رأس صغيرة: هذا الرسم الموجود على زجاجة "جادور ديور" يذكرنا "بالسيدات الزرافات" من تايلاند وميانمار. هؤلاء النساء يتم استغلالهن من قبل منظمي الرحلات السياحية في قرى زائفة تحاكي الحقيقة حيث يستعرضن أنفسهن أمام السياح الغربيين من أجل حفنة ضئيلة من المال. من خلال تلك الزجاجات الأشبه برقاب الزرافات، تتأرجح "ديور جادور" بين الاستخفاف والجمال الأجوف.

منصة الانطلاق 1. يقف البائعون والبائعات في المحل من خمس إلى ست مرات يوميًّا في صف طويل بالداخل. يُرفع صوت الموسيقى إلى أعلى درجة ويبدأ الجميع في الرقص وهم يحركون أيديهم مع الإيقاع. داخليًّا، في "سيفورا" نطلق على هذا التقليد اسم "منصة الانطلاق". وهو من أكثر المشاهد الجاذبة في هذا الشارع الكبير. تلقائيًّا، يتجمهر الناس أمام المحل. وبفضل السجادة الحمراء، يتولد لدى الزبائن الذين يدخلون في هذه الأوقات شعور بأنهم محظيون أو أنهم نجوم. أقل حركة رقص صغيرة تطلق صرخات مدوية من البائعين والبائعات. وبالطبع، ولتخليد ذكرى هذه "اللحظات" يخرج كل شخص كاميرته أو هاتفه للتصوير. من بعيد، يشبه هذا المشهد غابة من كاميرات التصوير القائمة على أقدام بشرية. فهم يشاهدون هذا "العرض" عبر شاشاتهم.

“منصة الانطلاق 2”. تُعتبر هذه اللحظات الأسوأ بالنسبة إلى الحارس. إلى جانب التجمهر الكبير والضوضاء المزعجة، نجد الراقصين السيئين والموسيقى الرديئة.

من سيُشوَى في نيران الجحيم بسبب هذه الموسيقى البشعة المنتشرة عالميًّا؟

في انتظار ذلك، ملعونان هم “ديفيد جيتا” و”البلاك آيد بيز”.

مزيل العرق. حرفيًّا، مزيل العرق الأفضل هو ما نستخدمه لإزالة أي رائحة للجسد.

“نيكون” مقابل “كانون”. ينقسم الآسيويون، بكاميراتهم الضخمة المزودة بعدسات كبيرة معلقة في حزام حول بطنهم إلى مجموعتين:

- الصفر: يرتدون أحزمة تحمل شعار “نيكون” لونه أصفر في أسود

- الحمر: يرتدون أحزمة تحمل شعار “كانون” لونه أحمر في أسود

حوامل الأحذية. دخل شاب ياباني يحمل حقيبة يد “برادا” وفي يده، يحمل أداة بلاستيكية معلق عليها حذاء رياضي يبدو مستخدمًا: هو حامل أحذية. أما هو فيرتدي صندلًا أزرق ويتخيل الحارس أنه إذا هطل المطر سيغير حذاءه سريعًا وهو يصرخ “بانزاي”!

عندما لا نفهم “الآخر”، عادة ما نخترع كليشيهات عنهم.

الثورة الثقافية لـ”لوي ڤويتون”. الكثير من الأحزمة وحوافظ النقود والإيشاربات وحقائب اليد وحقائب السفر، إلخ. لدى الصينيون إكسسوار واحد على الأقل من ماركة “لوي ڤويتون”. اكتملت الثورة الثقافية لـ”ماو” في ميدان “فوندوم”.

الصين في مواجهة اليابان. بعيدًا عن الإكسسوار الضروري من ماركة “لوي ڤويتون” يرتدي الصيني مثل “ديدي” أو “إنريت” من بار “دي سبور” بجانب بلدية “لافارتيه سو جوار” أو “أمبليون سير جلان”.

أمَّا الياباني.. فهو يرتدي مثل “فليكس” أو “آن - صوفي” في بار “القطة السوداء” أو “شي بريون” في شارع “أوبركامب” أو في قناة “سان مارتان” التي تعبر باريس.

في حديثك مع الياباني، تجد أن أغلب الأصوات التي يصدرها بها صوت “أوو”. فالصين كالجزيرة، لذا من الطبيعي أن تكون مغلقة بشكل أو بآخر.

- تجد الصيني دائمًا في مجموعة.

- لكن الياباني يكون غالبًا بمفرده أو ضمن اثنين على الأكثر

- الصيني يصرخ حتى عندما يطلب بعض المعلومات من الحارس.

- الياباني يهمس، خصوصًا عندما يطلب بعض المعلومات من الحارس.

فقدان السمع. ربما هناك فرصة أن يكون الإيطاليون على غرار الصينيين، مصابين بالصمم أيضًا. وإلا فسيصبح صعبًا أن نشرح سبب تحدثهم بهذا الصوت العالي حتى إن كانوا قريبين من بعضهم بعضًا.

المخلِّص. كُتِبَ على حقيبة سيدة عجوز بالحروف البارزة: "الفن سينقذ العالم" – "فيودور دوستويفسكي"

رأس مال أعمى ودون جنسية. دخلت سيدة منتقبة بالكامل دون حتى مكان لفتحة العينين. قد تكون من أي بلد. تحمل حقيبة بلاستيكية كُتِبَ عليها باللون الأحمر:

"رفينيو مجلة تعطي نصائح في البورصة والاستثمارات".

"نيلوفار" الفارسية. هي بائعة من أصل إيراني، تعوض دمامتها نسبيًا بابتسامة دائمة. هي تشع حقًّا سعادة بالغة بالحياة. تعني "نيلوفار".. "نينوفار" باللغة الفارسية أي زهرة "اللوتس".

ذوق الحثالة. يأتي شباب الضواحي - ممن نطلق عليهم تعسفيًا وبشكل مبالغ به.. "الحثالة" – إلى المحل ليتعطروا بشكل يومي من "هوجو بوس" أو "وان مليون" لـ"باكو رابان"، زجاجتها تشبه سبيكة الذهب. هناك أحلام عديدة في طيات هذه الرموز، كما تحمل الرموز الكثير من الأحلام.

تخفيض الرتبة. المقولة الشهيرة لـ"كامايو" التي تقول "في محل الملابس، الزبون الذي لا يحمل حقيبة، هو زبون لن يسرق شيئًا" وهي مقولة لا تنطبق على "سيفورا". ما يجعل هذه المقولة تتراجع إلى كونها مجرد نظرية.

لدى "سيفورا"، تعتبر الملابس الداخلية والصدريات والجيوب وأكياس النقود والوشاحات والقبعات والقفازات وعربات الأطفال، إلخ أو أي شيء يمكن ارتداؤه أو نقله عن طريق جزء من الجسم البشري، ما هو إلا مكان لإخفاء أو نقل بضاعة لم تمر على خزينة الدفع.

العصر الذهبي 1990-2000

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". كانت المرأة تلف رأسها بقطعة قماش تقليدية من أفريقيا. وترتدي سترة برسوم مبهجة ومتعددة الألوان من نوع القماش نفسه الذي على رأسها. بالطبع، هو من نوعية القماش المصنوع من "الواكس" الهولندي.

ربما كُتِبَتْ عليها كلمات أغاني مثل "تركني زوجي" أو "منافستي غيورة" أو "رجلي على رجلك". لم نرَ أبدًا أي امرأة هولندية ترتدي مثل هذا القماش بألوانه الصارخة ونقوشه الغريبة. في أمستردام وفي "فاينورد" أيضًا، باستثناء يوم عيد الملكة الذي يرتدي فيه الجميع اللون البرتقالي، تكون جميع الملابس غامقة اللون وقاتمة كما هو الحال في باقي أوروبا. مع ذلك، ومنذ زمن بعيد، لا تُقْسِم النساء الأفريقيات إلا بـ"الواكس" أو بـ"الشمع المصنوع 100٪ في هولندا". يبلغ ثمن قطعة القماش الواحدة ما لا يقل عن الراتب الشهري لموظف صغير من العاصمة "واجادوجو" أو من "لومي".

كانت السيدة ثابتة ترسم ابتسامة تبرز خديها الممتلئين واللامعين على الرغم من بشرتها السوداء. رقبتها الممتلئة بها تقسيمات دائرية وتتحول نزولًا ببطء إلى أكتاف مستديرة. كانت ترقوتها ترفض أن تكسر هذا التناغم في المنحنيات، فلم تجرؤ على إحداث أي نتوء في نهاية الرقبة. ثدياها فقط، وهما ضخمان كما نلاحظ، سمحا ببداية بروز تغطيه، على استحياء، قطعة القماش الثمينة، "الواكس". المشهد بالكامل لا يثير أي شك في أن هذه السيدة تتنفس بدانة وسعادة.

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". كان الطفل يقف إلى جانب السيدة. كان يرتدي أيضًا قميصًا من القماش الأفريقي الملون. ولكنه من نوع "فانسي" بالطبع. فقمصان الأطفال لا تُحاك من قماش "الواكس" الهولندي. هذا لا يجوز. "فانسي" أفضل للأطفال. "الفانسي" هو نوع من القماش "الواكس" الأقل جودة، ويستخدم لتلبية الاحتياجات اليومية. "فانسي" بمثل هذا الاسم، تعود أصول هذا النوع من القماش إلى مصانع الغزل في إنجلترا. "ليفربول"؟ "مانشستر"؟ ربما. الآن، يُصنع "الفانسي" في المصانع الموجودة في البلد نفسه.. في "بواكي" أو "أبيدجان". وكان هذا كافيًا ليخلق في أذهان الناس كل عيوب الصناعة الحقيقية والمختلقة. يُقال على سبيل المثال إن "الفانسي" ينطفئ لونه أسرع من "الواكس". ولما كان أرخص سعرًا، كان الناس يرتدونه بشكل أكبر ومن ثَمَّ يُغسل بشكل أكثر. يضربونه على الحجر، يفركونه بشكل قوي على ألواح من الخشب القاسي ويشطفونه بمياه غزيرة، ثم يعصرونه جيدًا من الاتجاهات كافة للتخلص من المياه تمامًا، ثم يتركونه ليجف تحت الشمس الاستوائية الحارقة، أي نوع من القماش يتحمل مثل هذه المعاملة مدة طويلة؟ يبدو أن قميص الطفل من قماش "فانسي" لم يعانِ بعد من هجمات "الفانيكو"، الأفارقة ممن يغسلون الملابس. هؤلاء الأشخاص، أقوياء العضلات يطوفون بالبيوت كل صباح بحثًا عن قطعة قماش تُساء معاملتها بحجة النظافة. على الملصق، كان قميص الطفل

جديدًا وتم كيه جيدًا، لم يمسه أي "فانيكو" أبدًا. يثبت الطفل نظرة عينيه الضاحكة بيضاوية الشكل راسمًا ابتسامة كبيرة في كبر ابتسامة السيدة بجانبه. تشير سمنته الواضحة واستدارة وجهة إلى صلة قرابة وثيقة مع هذه السيدة، أم وابنها؟ هذا أمر أكيد. على أي حال، تزيل الصورة أي شك حول هذا الموضوع.

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". كانت الصورة عالقة في إحدى محافظ النقود المصنوعة بإطار بلاستيكي شفاف، إذ يمكن وضع صور شخصية عزيزة على القلب وعلى محفظة النقود على حد سواء. تحت الصورة مباشرة، صورة إبهام ضخم أسود يؤكد أن صاحب هذه المنحة هو رجل أسود، ليس من "جزر الأنتيل"، وإلا كانت المرأة لترتدي قبعة مبهرجة وقماشًا به مربعات. وليس أمريكيًّا، وإلا لارتدت المرأة باروكة من الشعر الناعم الأسود، وعدسات لاصقة خضراء وبدلة من لون واحد. لا، هذا الرجل الذي يحمل حافظة النقود تلك كان أفريقيًّا. القماش الذي ترتديه السيدة والطفل يؤكدان ذلك. يُعتبر هذا القماش علامة مميزة للأفارقة. يعرف وكلاء الإعلانات أبجدية هذه الكليشيهات جيدًا. ثم إن ذِكر ظرف المكان - "بلد المنشأ" - يؤكد أنه يتحكم بشكل جيد في جيب هذا الزنجي الصغير. تقع هذا الجملة الآمرة في نهاية الإعلان، مكتوبة بحروف صفراء على خلفية سوداء. بهذه الطريقة، تتباهى شركة "وسترن يونيون" بخدمة تحويل الأموال على إعلان يقع على مساحة 4 في 3 أمتار.

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". يرى "أوسيري" هذا الإعلان الذي يشغل مساحة 12 مترًا مربعًا من كابينة الحراسة الصغيرة من داخل المصنع الذي كان في السابق "جراند مولان" في باريس.

على رصيف "بنشار – إيه - لوفاسور"، تحوَّل مصنع "جراند مولان" إلى مجرد حطام في مكان مهجور. منذ زمن بعيد، لم يخرج جرام واحد من الدقيق من هذا المبنى المسكون الواقع بين نهر "السين" وسكك حديد محطة "أوسترليز". ولمنع المتسولين من شغل هذا المبنى، يعمل الحراس ليلًا نهارًا، طوال اليوم، وطوال العام، دون توقف، على حماية مثل هذه المباني. وُضِعَ كشك في مكان غير بعيد عن المدخل حيث بقايا حجرة حراسة بجانب واحد من السياج. في الداخل، هناك طاولة، وكرسي، ومدفأة صغيرة كهربائية. في هذا الصباح الشتوي، شعر "أوسيري" بالبرد. كان يجلس على مقعده، ويضع قدميه على المدفئة التي تحاول، بكل قواها الكهربائية أن تزيد من درجة الحرارة في هذا الكشك الصغير. وضع يديه في جيبيه وهو ينظر إلى لافتة "ويسترن يونيون" التي تدعو - من خلال الضحكات المبهجة التي ترسمها سيدة ترتدي "الواكس" وطفل يرتدي "الفانسي" - المهاجرين السود في فرنسا إلى إرسال المال إلى "البلاد".

“أرسلوا بعض المال إلى البلاد”. من كثرة ما تأمل الإعلان، تمكن “أوسيري” من أن يجد أوجه التشابه بين أمه والسيدة الموجودة على صورة الإعلان؛ ربما هي الطمأنينة في نظرتها، ربما في فتحتي الأنف الصغيرتين، وسلاستها في الوقوف أمام العدسة، أو ربما في الانطباع العام.

نجح وكيل الإعلانات بشكل باهر في أن يجد هذا التشابه بين هاتين السيدتين وهو ما يُعتبر إنجازًا جنونيًّا، لأنهما من الناحية الجسمانية على النقيض تمامًا. ثم إن أم “أوسيري” لا ترتدي “الواكس” أبدًا. كانت دائمًا ما ترتدي الجينز والبلوزات البسيطة للغاية. اكتسبت هذه العادة منذ عادت من فرنسا في السبعينيات بعد أن أتمت دراسة علم الاجتماع. كانت طريقة لبسها الأقرب إلى امرأة غربية متحررة سببًا في اكتسابها كنية تكرهها كثيرًا وهي: “البيضاء”. مع ذلك، لم تتردد في شرح لمن يريد أن يستمع أن قماش “الواكس” المعروف بأنه “أفريقي” هو “رمز حي” للاغتراب والاستعمار والاعتمادية: “نهاية ملونة سخيفة لدائرة إهانة الزنوج الجهنمية التي بدأت منذ عصر العبودية”. كان “أوسيري” يتساءل دائمًا من أين تأتي هذه العبارات وهذا الشغف الذي يضيء عينَي والدته عندما تبدأ في الحديث عن هذه الموضوعات.

كانت تقول:

“بالدهاء والحديد والنار، كان البيض يكبلون أجدادنا بالملايين، ويخطفونهم ويوزعونهم أينما مرُّوا مثل الحجارة في الأمريكيتين. تحت سوط الذل والتجاهل التام لإنسانيتهم، كانوا يجعلونهم يعملون في المزارع مثل “باكاري” صاحب مزرعة الخضراوات الذي يجبر ماشيته على العمل في وحل حظيرته الواقعة خلف المنزل. افهموا جيدًا يا أطفال، البيض مثلنا. لديهم مشكلة طبقية لكنهم مثلنا. مثلنا في الروح والدم. مثلنا، في عبادة الآلهة. يقدمون القرابين لتصبح حقولهم خصبة. لكن، حيث نعيش، نحن نذبح بشكل رمزي دجاجةً ونترك دماءها تسيل على الأرض ونرسل بعض اللعنات المختارة جيدًا إلى أجدادنا، أما هم فمجبورون على إسالة شلالات من الدماء. عذَّب أجدادهم وأهانوا ابن إلههم بشكل مروع قبل أن يصلبوه على صليب حيث مات بعد أن فقد كل دمائه. وللتكفير عن هذا الذنب، طالبهم إلههم بسفك وديان من الدماء خلال تقديمهم القرابين التشفعية. لذا، قتل البيض الملايين من الهنود لجعل أراضي الأمريكيتين خصبة. سالت أنهار من دماء الرجال الحمر على الأرض التي يعمل عليها العبيد السود دون توقف أربعة قرون!

افهموا جيدًا أيها الأطفال، خلال 400 عام، باع البيض من الأمريكيتين أكثر المنتجات الزراعية تحقيقًا للربح في كل الأزمان. خير مثال على ذلك قصب السكر والقطن. غزا القطن أوروبا بأسرها. عادت مصانع الغزل في فرنسا وإنجلترا وهولندا إلى العمل بكامل طاقتها. وبدأ البيض هناك في ارتداء

الملابس بشكل أفضل. وبمرور الأعوام، ازداد عدد إخواننا في الاستعباد كما ازدادت قوتهم شيئًا فشيئًا. أقوياء لدرجة أنهم تحت وطأة السياط كانوا يتغنون بالشكاوى وهم يعملون بشكل أكثر قسوة دائمًا. لذا، اكتظت مصانع الغزل في أوروبا بالقطن. كان للبيض رفاهية ارتداء الملابس الجميلة وتغييرها يوميًّا، واختراع الموضات المختلفة، ولم يعد في استطاعتهم استهلاك المزيد من القطن الرخيص القادم من "المسيسيبي" و"ألاباما" و"جزر الكاريبي" ومن أرجاء الأميركتين كافة. لذا خطرت لهم فكرة براقة: أفريقيا، نعم أفريقيا، أكبر مستودع لمستهلكي الأقمشة القطنية كانوا يبعدون مسافة ركوب السفينة. أفريقيا التي قسمها الأوروبيون بعناية إلى أراضٍ بطريقة عشوائية واقتسموها بينهم بدقة كما يُقتسَم لحم الفيل بعد الصيد الجماعي. منذ العصر الذي كانوا يقايضون المرايا أو الحليَّ المضيئة مقابل العاج أو الذهب مع قادة القبائل الجهلة، كوَّن البيض فكرة قوية ومحددة جيدًا عن عادات وأذواق الأفارقة.

في مصانع الغزل، حولوا كرات القطن إلى أقمشة ذات ألوان صارخة ورسوم جنونية. وهنا رأى القماش الأفريقي الملون النور. ومن خلال نقلهم ملايين من الزنوج خلال القرون الغابرة، تدرب البيض جيدًا على ملء عنابر السفن بطريقة فعالة ببضائع ضخمة وليس من السهل ترتيبها. ما بالكم لو كانت البضائع غير حية ومرنة وقابلة للطي! ملأت عنابر السفن حتى السطح أحيانًا. وأغرقوا شواطئنا بهذا القماش: من "داكار" إلى "نيروبي"، ومن القاهرة حتى "الكيب تاون". فـ"البروباجندا" التي يصنعها القوي تجد صداها عند خنوع الضعيف. بدأ الأفارقة من النساء والرجال في ارتداء هذه الأقمشة كما لو كانت لديهم منذ البداية. بدأ الأفارقة من النساء والرجال في تغطية أجسادهم الجميلة بهذا القماش ذي الأصل المخزي والذوق الرديء. وكان هذا نهاية ملونة بسخف لدائرة إهانة الزنوج الجهنمية التي بدأت منذ عصر العبودية".

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". لم يتخيل "أوسيري" أن مجرد إعلان يمكنه أن ينقله بعيدًا إلى هذا الحد.. إلى الأمسيات الطويلة التي كان يقضيها على "المصطبة" مع والدته التي كانت تحكي له نسختها الخاصة من التاريخ حتى تترقرق عيناه بطبقة شفافة من الغيوم.. دموعه. يقال إن والدة "أوسيري" قد تغيرت كثيرًا بعد أن سافرت إلى فرنسا. على الرغم من استياء والديها، رفضت وظيفة مربحة للغاية كمدرس مساعد عُرضت عليها من وزارة التعليم الوطني للعمل في جامعة "أبيدجان". قررت أن تظل المعلمة المتواضعة التي كانت عليها قبل أن تذهب إلى فرنسا لاستكمال دراستها التي كان من الصعب أن توفرها لها الجامعة القومية. عندما سُئلت عن السبب في هذا الاختيار، كانت تفقد اهتمام مستمعيها بسبب الشرح غير المفهوم للنظرية الماركسية حول "انتحار الطبقات".

كانت تصمم على أن يستمع الناس إلى شرحها، لكن الهلع كان ينتاب الناس عندما تبدأ في قولها إن هذه الأيديولوجية قد اخترعها وطبَّقها رجل يُدعى "أميلكار كابرال"، وهو يشبه "جيفارا" لكن ببشرة داكنة، وهو من "كابو فيردي" وانطلق ليشعل الثورة في سيراليون. كل مرة تضيع فيها المال، لم تجد جدة "أوسيري" كلمات أقل قسوة لتصف بها هذا الشيطان "إميل – كاكا - برال" الذي رحل بعيدًا عن بلاده ليتدخل فيما لا يعنيه وبسببه رفضت ابنتها العمل أستاذة جامعية كبيرة. وبعد أن انتحرت طبقيًا، انتقلت والدة "أوسيري" إلى المرحلة التالية. كل مرة تلد فيها طفلًا، كانت ترفض أن يحمل اسمًا يهوديًّا أو مسيحيًّا أو إسلاميًّا حتى بالنسبة إلى الاسم الثالث أو الرابع في مستخرجات شهادة الميلاد في السجل المدني الأبيدجاني. "أوسيري" وأخوه الأصغر "واندجي" وأختاه الصغيرتان "أوهوا" و"دجدجا" كانوا وحدهم يحملون أسماءً أفريقية من بين كل تلاميذ فصولهم. كلفهم ذلك، جميعهم، بعض المعارك التي لا تُنسى بسبب سخرية الأطفال الآخرين ممن يحملون أسماءً مثل "جون كلود"، و"بيار إميل"، و"باسكال"، و"جاك فيليب"، و"بريجيت"، و"آن سيسيل"، و"تيريزا" أو "ماري فرنسوا". الغريب هو أن أمه هي من يطلقون عليها "البيضاء". من دواعي السخرية أن "أكيه"، أباهم الاقتصادي العظيم، ذهب للعيش مع سيدة أخرى أقل بياضًا وتعقيدًا وتفكَّرَ بشكل أبسط. تحولت أمسيات "المصطبة" إلى نوع من التواصل الأسري مع والدتهم. يتذكر "أوسيري" الكلمات والجمل والفقرات الكاملة.

"افهموا جيدًا يا أطفال، إن المواد الخاصة بالمنزل لا تقل أهمية عن المواد التي تُدرَّس في الفصل. البرامج الدراسية لبلادنا غالبًا وضعها أناس كفء، ولكنهم كسالى بشكل خاص. اكتفوا بمواصلة المواد التي ورثوها عن الاستعمار. دون أي تفكير، ساروا على خطى التعليم الاستعماري المهين والطفولي والعنصري. الآن، الأفارقة هم أنفسهم من يعلمون الأطفال الأفارقة كيف يشعرون بالخزي من أنفسهم ومن ثقافتهم ومن تاريخهم ومن حضارتهم. الأفارقة هم أنفسهم من يعلمون أطفالهم شجاعة "فرسانجيتوريكس" وهمجية شعب "الزولو" والرؤية الطليعية لـ"لويس الرابع عشر" وعمى الملك "بهانزين"، وعظمة آل "نابليون" وخنوع "الساموري توريه" وشجاعة "آل ستانلي" وجبن "الماكوكو" وكرم "الكنيسة" وظلامية الأوثان.. كل هذا ليثبتوا سمو الحضارة اليهودية المسيحية على كل الحضارات الأخرى، بالطبع هذا أكثر فاعلية مما حدث في عصر البيض نفسه. افهموا أيها الأطفال، إن الإنجاز الأهم للاستعمار هو التعليم. لذا، فبالتعليم فقط، التعليم الأساسي على وجه التحديد، يمكننا أن نخرج أنفسنا من هذا العبء الاستعماري الثقيل. في الجامعة، سيكون الأمر متأخرًا جدًّا. لأن الشباب هناك سيكونون قد فُتنوا بالفعل بالبيض وكرهوا عقدة الزنجي الجيد. سيفعلون كما فعل معلموهم. لذا لا بدَّ من متطوعين من الرجال والنساء ليعلموكم، ليعلموكم من جديد كيف تكونون أفارقة كما كان يجب أن نصبح نحن وآباؤنا إذا كنا قد تعلمنا قيمة ثقافتنا وحضارتنا القديمة قدم الزمان. افهموا هذا جيدًا أيها الأطفال**!**".

إلى جانب موسيقى كلمات أمه، تذكر "أوسيري" أيضا الحركات البطيئة والمطمئنة لشفتيها اللتين ترسمان صورًا رائعة وبسيطة، وعينيها المتوهجتين، ونظرات أخيه وأختيه المستسلمة.. "أوسيري" يتذكر كل شيء. كل هذا يدفئه، أكثر مما تفعل المدفأة تحت قدميه.

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". كان مجبرًا على القيام بدوريات في المباني المهدمة. كانت النوافذ مكسرة، الأبواب غائبة والممرات لا تنتهي والقاعات دون أسقف، والساحات تملؤها الخردة، والسلالم الميكانيكية الضخمة يعطلها الصدأ، والماكينات القديمة تتخذ أشكالا غريبة.. كان مصنع "جراند مولان" في باريس خرابًا مذهلًا. كانت تيارات هواء الشتاء المثلجة ترقص دائريًّا في هذه السفينة الفضائية الخربة على ضفاف نهر "السين". يعشق "أوسيري" القيام بهذه الدوريات؛ فعلاوة على أنه يحمي ظهره من تصلب المفاصل الناتج عن وضعية الجلوس على المقعد الصلب، كان يشعر، عندما يسير في هذه الأماكن بأنه في أحد أفلام هوليوود حيث يسير البطل وحيدًا في أرض ما بعد النهاية باحثًا عن حقيقة الخلاص المخفية في مكان ما يتجاوز هذه الفوضى. كان يستمتع بالشعور باختلال التوازن عندما يرفع عينيه في بعض الأماكن حيث تتلاقى الدعامات الخرسانية والأنابيب المعدنية الضخمة. هنا، من المفترض أن نجد الصوامع. بفضل قوانين الجاذبية، تسقط حبوب القمح من أعلى، من ماكينة إلى ماكينة، ومن غربال إلى غربال، لتصل في النهاية إلى طول الإنسان، وتتحول إلى دقيق نقي وناعم لا تشوبه شائبة. لطالما تخيَّل "أوسيري" كل أطنان القمح التي مرت من هنا وتحولت إلى أطنان من الدقيق التي تحولت بدورها إلى أطنان من الخبز الذي أطعم ملايين البشر خلال عقود ولت. كل هذا كان يسبب له دوارًا ويؤدي إلى اختلال توازنه.

في بلاده، كان هناك أيضًا شبيه "جراند مولان" في "أبيدجان". كان يعود إلى عصر الاستعمار وبُني للسبب نفسه الذي بُني من أجله المصنع الواقع على رصيف "بنشار- إيه - لوفاسار". ولما كان الخبز هناك كان أيضًا طعامًا وطنيًّا، لم تخلُ صوامع "جراند مولان" الأبيدجانية من المادة الخام. وعلى الرغم من الجهود المتضافرة لمهندسي "أورستم" و"إنرا"، لم تجرؤ أي حبة قمح على النمو في المناخ الاستوائي الجاف والحار للكوت ديفوار. تمتع "أوسيري" وإخوته بساعات لا تُنسى على "المصطبة" والاغتراب الغذائي. كانت والدتهم غاضبة للغاية من هذا الأمر في المنزل، لم يكن هناك خبز للفطور. لم يحدث هذا من قبل أبدًا. لم يكن هناك وجود للحليب أو الزبدة. كانت تحضر البطاطس، و"الكاسافا"، والأرز البائت، والموز، بكل أشكال وطرق طبخ هذه الأكلات. بذلت قصارى جهدها لتتخيل طرق طبخ تمنعهم من التقرب من زملاء الفصل الذين يتغذون على التوست بالزبدة ماركة "بريزيدون"، أو الحليب المكثف المحلى ماركة "نستله" أو الحليب المكثف غير المحلى ماركة "بونيه روج".

"افهموا جيدًا أيها الأطفال، لا يمكن لنا أن نستقل عندما يأتي ما نأكله ممن يتسببون في اغترابنا. يعود جزء كبير من ثرواتنا القومية إلى الغرب لنشتري أطنانًا من القمح لنلبي هوسنا بالخبز. افهموا جيدًا أيها الأطفال، الخبز ما هو إلا هوس غذائي، عقدة غذائية. صفوه بما ترغبوا لكن لا تصفوه بأنه مادة غذائية للعيش بالنسبة إلينا. لسنا في الصحراء، هنا ترمي أي حبة في الأرض، ودون حتى أن تنحني مرة واحدة لترعاها، تصبح نبتة "باوباب" في ستة أشهر! تخيلوا ما يمكن أن نقوم به بالمال الذي نعطيه للفلاحين البيض؟" حقًّا، إن "أوسيري" يحب هذا الشعور بالدوار تحت صوامع القمح. ثم يذهب خلف المبني حيث السكك الحديدة. تدخل القطارات وتخرج إلى محطة "أوسترليز" محدثه صريرًا معدنيًّا: وتصدر صوتًا لا يطاق لمجموعة من الصور لنهاية العالم. عامة، يقابل "أوسيري" هنا فناني الرسم على الحائط. لم يجد منهم أي مشكلة. بالنسبة إلى "فناني الشوارع"، فهم يتعاملون عامة بلطف عندما يُقبض عليهم. لكن "أوسيري" كان يشرح لهم دائمًا أنه يمكنه أن يعود ليلًا لينهي ما بدأوه. كان يعرف أن "كاسوم" هو بديله الليلي، وأنه لا يقوم بدوريات. لهذا السبب، كان هناك دائمًا رسامون وفنانو جرافيتي في الجوار. شهد "أوسيري" على بعض الحوائط وأحيانًا على مدار بضعة أسابيع، اكتمال جداريات كاملة. يبدو أن الفنانين هنا لديهم الكثير من الأشياء للتعبير عنها غير تلك الجمل المقتضبة مثل "اللعنة على الشرطة" والتي يراها "أوسيري" على جدران بعض المدن.

بعد "جاليري الفنون"، اعتاد "أوسيري" قضاء بعض الوقت في تفقد المبنى من الواجهة الشرقية. كان المبنى المجاور حقلًا حقيقيًّا للجرارات، ساحة حقيقية ترقص فيها مقطورات الأسمنت. كان هناك حيًّا كاملًا يمتد على يسار نهر "السين". كانت العمارات التجارية والسكنية تظهر شيئًا فشيئًا من بين فوضى أعمال البناء. سار الحديث عن تغطية السكك الحديدية بألواح صلبة كبيرة حتى لا تتعرض المباني للتلوث البصري والصوتي لقطارات الضواحي والأقاليم المتعددة. بالطبع، لن يفكر الفقراء في السكن في هذا المكان. من خلال طريق مختصر اكتشفه مصادفةً خلال إحدى دورياته، تسلل "أوسيري" في متاهة جيدة التهوية ثم وجد نفسه في الساحة الكبيرة لمصنع "مولان". نهاية الدورية بالنسبة إليه. كانت الكابينة سابقة التجهيز ليست بعيدة. كابينة الحارس، كابينة الملل، كابينة إعلان "ويسترن يونيون".

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". أخذ "أوسيري" قرار القدوم إلى فرنسا بمفرده. لم يكن يعيش حياة فقيرة في "أبيدجان". سمح له عمله مدرسًا للعلوم الطبيعية في مدرسة خاصة بكسب ما يكفي ليعيش حياة ثرية نسبيًّا. كان "أوسيري" شابًّا، أعذب، دون أطفال ويعيش أغلب الوقت مع والدته، ويحصل على راتبه بشكل ثابت كل يوم 25 من الشهر، وكان يُعتبر موظف صغير جيد. رأى حياته تمتلئ بالطرق

المرسومة والأمور اليقينية الثابتة دون أي عوائق. في عمر 23 سنة، بدأ التدريس. الدروس نفسها تتكرر من عام إلى آخر، انتظار تحويل الراتب، ثم السهرات الليلية المليئة بالبيرة والنكات البذيئة والفتيات المثيرة مع زملاء من عمر والدته، وتلاميذ عمرهم يقل بالكاد عن عمره.. كل هذا أثار الخوف في نفسه. لكنهم قالوا له إن كل ذلك سيستقيم بشكل طبيعي مع الوقت. كان الفارق في السن بينه وبين تلاميذه يزداد مع مرور السنوات. لكنه كان يشعر دائمًا أنه في المكان غير المناسب.

كانت الرغبة في السفر قوية للغاية، صوتها مكبوت في أغوار نفسه. وبعيدًا عن أن أي حجج أو أي تفكير علمي، رغب "أوسيري" في أن يرى بلادًا بعيدة. عندما ذكر السفر، أو الرحيل، وصفوه بالمجنون. أشار البعض إلى وجود لعنة قوية أُلقيت عليه من "الأشخاص الحاقدة على نجاح الآخرين". حاول الكل أن يثنيه عن قراره. الكل عدا أمه. قالت له: "اذهب، شاهد العالم وعد إلينا". بكل بساطة، فُرِضَت عليه فرنسا كوجهة طبيعية. لم تُعلق والدته. يوم سفره، كتبت له رقمًا واسمًا على ورقة صغيرة. قالت له: "فردينان صديق لي. اتصل به عندما تصل، قل له إنك ابني الأكبر. سيساعدك إذا احتجت إلى شيء".

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". جاءت ليالي الشتاء سريعًا. كانت اللافتة الإعلانية تغرق في الضوء البرتقالي لإضاءة الشوارع. ستنتهي قريبًا الخدمة التي بدأت قبل 12 ساعة في السادسة صباحًا. كانت اللحظات الأخيرة، عامة، التي ينتظر فيها "أوسيري" أن يقله أحد هي أبشع اللحظات مللًا. لكن الوقت كان يمضي سريعًا عندما يفكر مرة أخرى في الأيام الصادمة التي تلت وصوله إلى باريس. شهدت الأسابيع الأربعة الأولى سعادة الجلوس على الأريكة.. اعتاد أن ينام بعد الجميع، ويستيقظ قبلهم. كان يسكن وقتها شقة "توماس"، وهو صديق قديم. عاش في فرنسا منذ ما يقرب من عشر سنوات. بوصول طفله الثالث، وجدت له الخدمات الاجتماعية مسكنًا للفقراء في حي "كورتيوريه أوميه " على نهر "السين"، في المحطة قبل الأخيرة لقطار الضواحي رقم "د" وتبعد أكثر من 40 كم في جنوب باريس. كان بالحي بعض المباني الصغيرة ذات الزوايا الحادة والحواري الضيقة المتعرجة التي تتبع منطقًا شبه خيالي. من الواضح، أن المهندسين الذين خططوا تلك المنطقة كانوا سكارى وهم يخططون لتلك المنطقة. لم يحتج "أوسيري" إلى أكثر من ثلاثين دقيقة من التنزه ليفهم أن المدينة بأكملها ما هي إلا مهجع كبير للغاية. لا شيء يمكن القيام به سوى النوم والذهاب إلى العمل فقط هذا إذا كان للمرء عمل من الأساس.

للذهاب إلى باريس، كان "أوسيري" يدفع ثمن تذكرة من "أبيدجان" إلى "واجادوجو" ويقضي وقتًا يضاهي ما يقضيه في الطريق بين "أبيدجان" و"أسيني" بالسيارة. نفدت مدخراته سريعًا. وانتهت إقامته

في اليوم الذي أنفق فيه آخر فرنك فرنسي في شراء علبة سجائر. "بعلبة "المارلبورو لايت" تلك، أصبحت دون شبكة تأمين يا صديقي". قال "أوسيري" هذه العبارة وهو ينظر إلى رأس "سانت إكزوبيري" على آخر ورقة من 50 فرنكًا فرنسيًّا وهي تختفي في درج خزينة كشك بيع السجائر. كان منذ هذه اللحظة وحيدًا على حافة انتظار "الترحيل".

طَرْدُ رجلٍ وإبعاده بالقوة عن المكان الذي يعيش ويعمل فيه، لمجرد أن المأمور رفض أن يوقع له على ورقة عادية كانت فكرة مرعبة بالنسبة إليه. على الرغم من ذلك، أحب "أوسيري" كثيرًا التعبير الإداري التالي: "الترحيل". ألهمه هذا بالتفكير في رحلة ريفية إلى المراعي والحقول وساحات مبهجة ومليئة بالضوضاء، وصولًا إلى حدود خيالية مليئة بالأساطير الساحرة. هناك، كل المرافقين سيغنون معًا أغنية "إلى لقاء قريب". ويستكمل "المُرحَّل" الطريق بمفرده ويذرف الدموع تأثرًا بالموقف. وعلى النقيض من هذه اللوحة المثالية الجميلة، كانت حقيقة "أوسيري" الجديدة، وهو أنه أصبح يشعر بأنه مقيد بالإقامة الجبرية في "ميه سور سين".

لم يقبل من قبل أن يستقل القطار دون دفع التذكرة. كان يحترم القواعد الخاصة باشتراك المواصلات لأنه يخشى "الترحيل". شرح له "توماس" أن شركة سكك حديد فرنسا جعلت شبكة السكك الحديدية في باريس أشبه بشبكة عنكبوت فائقة لاصطياد هؤلاء الذين لا يحملون "أوراقًا رسمية".

وقبل أن يُرَّحلوا، يبحث أغلبهم أولًا عن طريقة للذهاب بأنفسهم إلى العمل أو إلى صديق أو إلى منزل الأسرة دون تذكرة نقل. عندما كان "توماس" وزوجته في العمل، كان "أوسيري" يتجول كثيرًا في مدينة "ميه سور سين". اعتاد أن يراقب الإنشاءات الجديدة وهو يقول لنفسه إنها إذا بُنيت بالطريقة التي بنيت بها في أفريقيا، لتحولت إلى حي مغلق مخصص بالكامل للأغنياء. أمَّا هنا، فليست سوى حديقة لمن يحصلون على الحد الأدنى من الأجور والعاطلين عن العمل ومن يحصلون على الإعانات الاجتماعية. كان المكان أشبه بـ"اللا مدينة"، بمكان "إداري" على الخريطة، أو منطقة لا حدود لها في الغابة الحضرية الكبيرة متعددة الأوجه وباريس هي مركزها البعيد.

شعر "أوسيري" هناك بأجواء معسكرات الاعتقال. التقى الأشخاص أنفسهم أو بالأحرى الأنماط نفسها من الأشخاص. في هذا "اللا حي" "اللا مدينة".. هؤلاء المعتقلون جماعيًّا انقسموا بالتساوي إلى زنوج، وعرب، وبيض؛ كل من يستغلهم النظام مع تقديم حياة بالكاد مقبولة لهم حتى يعملوا ويُستهلكوا دون شكوى. جميعهم يدورون في دائرة واحدة حول نقطتين: محطة قطار الضواحي، والمقهى الكبير الذي يبيع التبغ، ويُعتبر صالة مقامرة في الوقت نفسه.

لم يحتمل "أوسيري" هذه الأماكن البائسة، حتى لو كان يذهب إلى هناك لفعل شيء ما. فضَّل أن يضيع في أفكاره المشتتة وهو يدخِّن السجائر على كوبري المشاة الهزيل الذي يمر فوق السكك الحديدية. يتوقف عادة في منتصفه وتحت أقدامه مباشرة يرى العربات الكهربائية فئة BB التي تسير بسرعة عشرات الكيلومترات في الساعة محدثة ضوضاء قوية وتهز الأرض وهي تجر عددًا لا نهائي من العربات والمسافرين والبضائع. تلك الهزات الصغيرة والشرارات التي تنتج عن احتكاك "السنجة" الذي يلامس خطوط عالية الضغط. كل هذا تمثَّل في مخيلة "أوسيري" في صورة عرض خيالي ساحر يسيطر عليه تمامًا. تختفي القطارات عند منحنى كبير في اتجاه باريس أو خلف مجموعة من المستودعات القديمة في اتجاه "مولان".

يقضي "أوسيري"، فوق الجسر، أحيانًا ساعات طويلة، منخرطًا في العديد من الأسئلة التي تتوالى سريعًا على ذهنه حول مستقبله كشخص "لا يحمل أوراقًا رسمية" في فرنسا. يومًا ما، وهو ينظر إلى قطار الساعة الرابعة و42 دقيقة بين "أوسير" وباريس، تذكر أنه لا يزال يحمل في حافظة نقوده الورقة التي كتبتها له والدته. قرر يومها أن يتصل بـ"فردينان". كانت رحلته إلى "شافيل" من أكثر الرحلات المثيرة للقلق. ولما كان لا يستطيع دفع ثمن تذكرته، قفز "أوسيري" فوق البوابات الدوارة.

يقولون في "أبيدجان": "تران - سبور- بيبليك"؛ أي مواصلات عامة رياضية. مع كل مرة يقفز فيها ليركب القطار أو مع كل مرة يدخل فيها شخص إلى المقصورة التي يجلس فيها، كان يتخيل أن هناك دورية من المفتشين يلقون القبض عليه ليسلموه إلى الشرطة المختصة بـ"الترحيل". لم يكن "أوسيري" متأكدًا أكانت الرحلة ستكون ريفية أم أن هناك جوقة ستغني كما في مخيلته. أثلجت لافتة "شافيل" صدره كثيرًا.

قال له "فردينان" في الهاتف إنه ينتظره على رصيف المحطة نفسها. لم يكن صعبًا تعرُّفه؛ كان الرجل الأسود الوحيد على الرصيف وعندما تكون في "ميه سور سين"، يجب أن تؤخذ هذه الملحوظة بعين الاعتبار. كان "فردينان" رجلًا قصيرًا وباسمًا. فيما عدا أنفه الكبير جدًّا، فإن كل شيء في حياة "فردينان" كان صغيرًا. استقلَّا سيارة "بيجو" قديمة 205 لونها أحمر كالخمر، بدت ككأس خمر يسير على أربع عجلات. كانت هناك رائحة منفرة وقوية لكلاب داخل السيارة. من حسن الحظ، وفي أقل من خمس دقائق توقفوا أمام بيت يقع في منتصف شارع شديد الانحدار. كانت "أوديت" زوجة "فردينان" قصيرة أيضًا ومبتسمة. تناول ثلاثتهم الطعام أمام التليفزيون. بدأوا بسلطة هندباء مع قطع دهن الخنزير، ثم لحم ثم جبنة "كامامبير" ذات الرائحة المنفرة ولكن اللذيذة. وكانت التحلية ثمار الكمثرى التي تسيل منها الشوكولاتة الداكنة. كان هذا غداءه الفرنسي الأول منذ وصوله. تحدث "فردينان" عن والد

“أوسيري” بكثير من الحنين. كان يحكي على استحياء، ولكن بكل ثقة عن الـ 25 عامًا التي أمضاها في فرنسا. عند وصوله، وبفضل عمه “أندريه”، حصل على وظيفة حارس في مصنع “جراند مولان” في باريس. كان دائمًا ما يعمل بجد وحظي بتقدير رؤساءه في العمل. وبعد 15 عامًا من العمل الوفي وتقديم الخدمات بإخلاص، شجعه البعض ليفتتح شركة الأمن الخاصة به. كان يعمل من الباطن من خلال العقود التي منحها له رؤساء العمل الذين عملوا هم أنفسهم من الباطن لصالح شركات ومكاتب خدمات أمن أكبر.

- يا صغيري، كنت أنا الرئيس الصغير في بداية هذه السلسلة. أجد عناصر الأمن، أخطط، أدفع الرواتب للجميع.. كنت أنا من يخاطر. باختصار، كنت أنا من ينجز العمل. ولكن هذا لم يضايقني، ما دام الكل معي. كنت عادلًا مع موظفي الأمن وأدفع لهم في الوقت المحدد، حتى إن لم يحملوا أوراقًا رسمية. هذا لا ينطبق على كثير من الإيفواريين الذين لديهم مكاتب تقديم خدمات الأمن مثلي. ستفهم ذلك فيما بعد. كما كنت أدفع الرواتب للجميع نقدًا، لأنه من خلال الشيكات أو التحويلات البنكية كان العاملون يتعرضون للنصب. كان إخوانهم أو أصدقاؤهم المزعومون والوسطاء المصرفيون في غمار ذلك لا يترددون في ابتزاز ثمرة عملهم. بداية من رؤسائي وحتى مأمور الشرطة، كان الكل يعرف أنني أوظف أشخاصًا لا يحملون أوراقًا رسمية، والجميع يغضون الطرف عن الأمر لأن هذا يناسب الجميع. أمَّا أنا، فدائمًا ما أحصن نفسي على أي حال. كنت دائمًا ما أطلب صورة من وثيقة إقامة سارية، أيًّا كان مصدرها. إذا كان الشخص لا يشبه صورته الشخصية، فربما يُقال إنني لم أنتبه بسبب ضعف بصري الشديد.

انخرط “فردينان” في ضحك به كثير من الشعور الطفولي البريء، وهو ما تنافى تمامًا مع قسوة الكلمات التي قالها للتو. ثم استمرَّ قائلًا بأسلوب أقل سخرية:

- يمكنني أن أجد لك وظيفة على أمل أن تكون جادًّا في العمل كوالدتك.

لم يسمع “أوسيري” باقي كلام “فردينان”. أثارت كلمة “عمل” في ذهنه الأمل المجنون بالاستقلال المادي، في الثورة التي ستقطع الرؤوس الملكية لملله في “ميه سور سين”. لم يعد حاضرًا لا برأسه ولا بأذنيه.

سرد “فردينان” حول الطاولة كل الذكريات القديمة المضحكة عن حياته الباريسية. لم يعد “أوسيري” يسمع شيئًا بالمرة. كان يفكر بالفعل في المشتريات الأولى التي سيقوم بها عند حصوله على راتبه الأول. ذكَّره ذلك بذكريات انضمامه إلى الوظيفة الحكومية في كوت ديفوار. ولكي يتابع الحديث مع “فردينان”، شغل “أوسيري” نظام “الطيار الآلي”. كان يقوم بحركات برأسه، مناسبة للحوار إلى حد ما، ليعرب عن

موافقته على شيء، أو ليضيف قائلًا: "حقًّا، هل حدث ذلك؟" عندما يسمع قصة طريفة وكان يصاحب ذلك على وجه الخصوص ضربة على الفخذين لتبقيه متيقظًا؛ لأنه إلى جانب هوسه بوعد العمل، شعر "أوسيري" بالنعاس.

بالنسبة إلى شخص يأكل طوال حياته وبشكل أساسي "الكاسافا" والموز والبطاطا الحلوة، أمَّا شريحة لحم العجل فكانت اختبارًا حقيقيًّا لقوة الهضم. حشد الكبد كل ما أوتي من طاقة وعصارة ليتمكن من هضم خليط الدقيق والزبدة والكريمة التي غطت مكعبات اللحم الكبيرة. كان "أوسيري" يتمايل من شدة النعاس. اختفت "أوديت" منذ وقت طويل في المطبخ الذي خرجت منه أصوات غسيل أغطية الحلل بصابون الأطباق. كان من غير المهذب أن ينام "أوسيري" خلال هذا الحوار الثنائي. لكن، هل كان "فردينان" يتحدث معه حقًّا؟ أم إنه كان يحدِّث نفسه؟ كان يتذكر بصوت عالٍ أفضل لحظات حياته، ويعيد الطريق الذي سار فيه منذ قريته. بالكاد ميَّز "أوسيري" بعض الأشياء عن أزمة البترول الشهيرة في عام 1973. وسمعه يتحدث عن "جراند مولان"، عن المسيح أو غير ذلك. لم يعرف حقًّا، تحدث عن أشياء كثيرة ليس لها معنى واضح بالنسبة إليه. في نهاية اليوم، عندما توقف "فردينان" أخيرًا عن الكلام، أعطاه ثلاث ورقات فئة 100 فرنك فرنسي، وقال له:

- حتى تتمكن من الصمود في انتظار العمل.

يا لها من ثروة!

- أين تنام؟

- في "ميه سور سين".

- هل هي قريبة من "ميلون"، أليس كذلك؟

- المحطة التي تسبقها.

- هذا بعيد يا صغيري.

- ...

أخذ "فردينان" تليفونه الأحمر الذي يحمل لوجو "فرانس تليكوم". كان يتحدث عن أم "أوسيري" مع رجل يُدعى "جون ماري". في نهاية الاتصال، قال له بنبرة أبوية:

- لا يمكن يا صغيري أن تعيش في مكان بعيد للغاية في الضواحي. يجب أن تسلك مسارك الخاص، ثم إنه لا يمكنك أن تسكن لديَّ أيضًا. "جون ماري" لديه غرفة في "نُزُل الطلَّاب الإيفواريين في باريس". لن يؤجرها لك بثمنٍ غالٍ. هو يعرف والدتك جيدًا. كانوا يناضلون معًا آنذاك. غدًا، في السادسة، ستبدأ العمل. في باريس نفسها.. مترو "تولبياك"، رصيف "بونار إيه لوفاسور". لا يمكنك أن تخطئ.. مصنع "جراند مولان" في باريس.

"أرسلوا بعض المال إلى البلاد". تلعب النوافذ المعدنية المدهونة باللون الأخضر الزاهي والرمادي الأسمنتي دور السور الخارجي للمبنى بأكمله. أمَّا المدخل الرئيسي فهو بوابة معدنية غير مستقرة ومنزلقة وتصدر ضوضاءً. كانت البوابة تسمح بدخول الفريق المناوب أو بعض عربات النقل التي تنقل من المصنع القديم الخردة الحديدية والصلبة. لكن في هذه الساعة، عندما كانت البوابة تصدر أزيزًا وتنزلق، يحركها من الخارج رجل أسود يرتدي الأسود أيضًا، دخلت سيارة "بيجو" موديل 205 بلون الخمر الأحمر من البوابة.

المناوبة. كانت سيارة "فردينان" القديمة إلى حد ما هي "السيارة الناقلة" لمجموعته. كان يوصل بنفسه بعض العمَّال إلى أماكن عملهم. اليوم، كان يُوصِل "كاسوم" و"جوزيف". منذ عام إلا شهر، أي منذ بدأ "أوسيري" العمل، كان دخول الفريق المناوب يتم بشكل مثالي بطريقة تُضاهي حراس قصر "وندسور"، قصر ملكة إنجلترا الصغير. ركن السيارة أمام كابينة الحارس. نزل "أوسيري" وسلَّم على "فردينان". قدَّم له شفهيًّا تقريرًا لا يتجاوز الثلاث كلمات: "المكان هنا آمن". ثم فتح الباب الخلفي للسيارة لينزل "جوزيف" الذي لا يطيق الانتظار. رحل "فردينان" سريعًا لأن لديه موظفين آخرين ليقلَّهم. غرقت شركة الأمن الخاصة به في عقود العمل المبرمة من الباطن. ثم، أغلق "كاسوم" بعد ذلك البوابة الكبرى بالقوة. انطلقت "البيجو" 205 على رصيف "بنشار إيه لوفاسار" وأطلقت سحابة من الدخان الأسود على اللافتة الإعلانية لـ"ويسترن يونيون".

"استرخِ، جوزيف لن يأكلك". كانت هذه هي الدعابة التي يطلقها "كاسوم" قبل أن يمسك بالطوق الجلدي لجوزيف. في الحقيقة، لم يشعر "أوسيري" بالراحة في وجود هذا الكلب الضخم. كان لسانه الأحمر يصل حتى صدره على الرغم من فمه القوي. كان "أوسيري" يقول لنفسه إنه لا يمكن الوثوق بكلب أسماه صاحبه تكريمًا لـ"ستالين" و"موبوتو" و"كابيلا"، وهم ثلاثة من الديكتاتوريين الذين تشاركوا الاسم الأول نفسه وشعور القسوة نفسها. عادة، يرحل "أوسيري" بعد "فردينان" مباشرة. يحبس "كاسوم" نفسه في كابينة الحراسة ومعه التليفزيون المحمول الذي لا ينسى أبدًا أن يحضره معه. ثم لا يخرج أبدًا إلا

لملء طبق جوزيف بالطعام عندما يسمعه ينبح بقوة وقتًا طويلًا. كلاب "بارجي دو بوس" (بيوسرون) هو اسم ثاني للكلاب من فصيلة "الجوارب الحمراء" (باس روج).

"البوس"، هي منطقة فرنسية يُزرع فيها أطنان من القمح الذي ملأ الصوامع الكبيرة التي تفككت الآن. في المساء، كان ركام مصنع "جراند مولان" يتحول إلى مملكة لجوزيف، "بارجي دو بوس". أضحكت هذه السخرية "أوسيري"، وهو يمر أمام اللافتة الإعلانية لـ"ويسترن يونيون" في اتجاه كوبري "تولبياك". على الرغم من البرد، كان يتباطأ في مشيته. لم يتعجل في الوصول إلى "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، منذ أن ترك "ميه" انتقل للعيش في شارع "فينسنت أوريول" في قلب باريس نفسها، في هذا الحي الفقير. لم يكن نُزُلُ الطلاب مختلفًا، لم يعد نُزُلًا للطلاب منذ مدة طويلة. بل لم يعد نُزُلًا في الأساس.

استراحة

الحائط الرخامي. هذا هو المكان الأمثل للاستراحة. يقع هذا الحائط في مواجهة مدخل أحد المحال التجارية ويفصل بين الرصيف الضخم للـ"شانزليزيه" ومدخل جراج "فينشي" تحت الأرض. يجلس الحارس إلى هذا الحائط الرخامي ليشاهد مرور الحيوانات من ذوات القدمين ومن الجانب الآخر الدراجات الرباعية. في الاستراحة، يغير الحارس من نظرته في المراقبة.

موكب استعراض سيارات. في ساعة استراحة واحدة، دخل إلى جراج "فينشي" تحت الأرض سيارة ماركة "مازاراتي"، وسيارتان "بورش"، وسيارة "مرسيدس" ضخمة موديل "63 AMG"، وسيارة "فيراري" حمراء، وأخرى صفراء، وثلاث سيارات "6BMW X"، أي ما يكفي لإنشاء مستشفى إقليمي مجهز بالكامل في مدينة "جانجوا" ودفع رواتب العاملين وتوزيع الأدوية مجانًا لمدة عام. وذلك دون الحديث عن سيارات "البيجو" و"الرينو" و"فولكس فاجن" و"الأودي" و"الفورد" والسيارات التقليدية الأخرى.

ماكينات صرف النقود Fast GAB. ٧ ثوانٍ، بما في ذلك كتابة الرقم السري، وهو الوقت الذي تحتاج إليه في ماكينة السحب من بنك "إتش إس بي سي" بشارع "الشانزليزيه" للحصول على 20 يورو. في بنك "كريدي ليونيه" بشارع "لويس بونيه" بحي "بل فيل" العملية تستغرق 43 ثانية. في "الشانزليزيه"، تحصل على الأموال سريعًا وتصرفها سريعًا.. أمَّا في الأحياء الفقيرة، فحتى ماكينات سحب الأموال تتردد في إعطائك المال.

روز الكاشمير. أمام مدخل الجاليري التجاري، يقف عجوز ذو بطن كبير، ثابتًا ويرتدي الزي الهندي التقليدي، ويحمل لافتة على ذراعه مكتوب عليها: "روز كشميري، اختصاص هندي وباكستاني" في باريس. تحولت رغبة إقليم كشمير في الاستقلال إلى اللون الوردي بعد خلط الهند وباكستان في إناء واحد. كان "المهاتما غاندي" ليحب "الشانزليزيه".

ساق مبتورة. ارتمى شحاذ غجري أرضًا وأظهر ساقه اليسرى المبتورة أصابعها. كان هائجًا للغاية ولا ينفك يتحرك في كل الاتجاهات ويتحدث لغة أغلب الوقت غير مفهومة. ينهال على الشحاذين الغجريين الآخرين بالشتائم ممن يتجرؤون على الدخول في الحيز الوهمي الذي لا يعلم حدوده سواه.

صائد أعقاب السجائر. على حافة رصيف "الشانزليزيه"، يجلس رجل على كرسي وبجانبه كلب لقيط كسول. وجهه هادئ صبور كوجه صياد سمك يوم الأحد، يحمل في سكون سنارة صيد طويلة. في طرف هذه السنارة، دلو صغير تتجمع فيه السجائر التي يتركها له المارة.

يحقق صائد السجائر هذا نجاحًا لدرجة أنه يضطر إلى أن يفرغ دلوه كل ربع ساعة. إذا كان يدخنها جميعهًا، فلن يمر عليه فصل الشتاء وهو حي، وإذا باعها جميعًا فسيقضي الشتاء في جزر "برمودا".

استراحة. تعني "أخذ استراحة" في لغة الحراس أن يحل مكان زميل في محل آخر خلال وقت استراحته. بذلك، يستفيد الحارس من ساعة إضافية من العمل، ويسدي زميله خدمة في الوقت نفسه، وهي فرصة ليكتشف محال أخرى.

استراحة لدى "زارا" فرع "الشانزليزيه". في هذا المحل، نجد ملابس الرجال في الطابق السفلي أو القبو وملابس النساء في الدور الأرضي والدور الأول مخصص لملابس الأطفال. النساء يعلون الرجال والأطفال فوق الجميع.

استراحة في حي "لا ديفانس". في "سيفورا" فرع "الدفانس"، رئيس الحراس إيفواري متوسط العمر ونطلق عليه "إريك كوكو"، وهو مهووس تمامًا بروح "شانيل".

يقول "إريك كوكو"، بحرارة:

- عندما أكون في الداخل، لا تغيب عن عينيك منتجات "شانيل". خصوصًا زجاجات "شانيل 5" وحجمها 6.8 أونس.

الحارس:

- عذرًا.

- الناس هنا يحبون سرقة زجاجة "رقم 5" الكبيرة، ثم أيضًا "ألوور" 3.4 أونس. لا بدَّ من منع ذلك تمامًا.

- ما هذا الذي تقول، أتتحدث التركية؟

أجاب "إريك كوكو" وهو يثبت الحارس أمام قسم "شانيل":

- أتحدث عن "شانيل"، يا إلهي! شانيل "رقم 5" و"الير" من "شانيل". إنها عطور حقيقية. ماذا تعتقد أنك فاعل هنا؟ أنت هنا لتمنع سرقة الماسكارا التي بـ 10 يوروهات أو "كاشاريل" التي بـ30 يورو؟ قف هنا لا تتحرك. لو فقدنا زجاجة واحدة، لن تأتي أبدًا إلى متجري.

استراحة في "لوفالوا بيريه". في هذا الحي الباريسي البرجوازي، يوجد "سيفورا"، في وسط المدينة المبلط والمخصص للمشاة إلى جانب لافتات الترف الزائف والثقافة الزائفة. المحل ليس كبيرًا وكل الأقسام في مستوى نظر الحارس دون أي مجهود منه أو حاجة إلى أن يلف رقبته. في الداخل، الأجواء مكتومة والناس يتهامسون وهم يتحدثون، ربما خوفًا من مضايقة العطور المقدسة أو لتجنب تحريك المكونات الكيميائية بسبب الأصوات الصاخبة. في هذه الأجواء، نادرًا ما تكون هناك سرقات، والإنجاز الأساسي للحارس ألا ينام أثناء الوقوف.

استراحة في "فانسان".. يقع المحل أسفل قصر "فانسان" تقريبًا. في العصر الذي كان يسكنه أحد الملوك الملقبين بـ"لويس" ورقم من الأرقام، كانت المراحيض وحمامات الاستحمام نادرة. كانوا سيقدرون وجود "سيفورا" آنذاك.

الثقافة والمجمدات. في "الشانزليزيه"، يقع محل "فيرجين ميجا ستور" فوق سوبر ماركت "مونوبري". سقف المنتجات المجمدة هو أرضية قسم الكتب. يوجد فيليه سمك القد المجمد من ألاسكا الذي اكتشفته سفينة "كوين أوشن"، سمك مجمد لا طعم له، مثل كتابات "آنا جافلدا".. لقاء التفاهات.

الشرطة في كل مكان. يمتلئ شارع "الشانزليزيه" بالشرطيين في زي مدني. جميعهم يرتدون السترات بصرف النظر عن الفصل، ويضعون سماعات الأذن البيضاء المتصلة بهواتف "آيفون" ويعرضون صور المشتبه بهم المطلوب القبض عليهم. يا لهذا التقدم! يمكن تعرُّفهم على بعد كيلومترات، إلا أنهم يعتقدون بالطبع أنهم متخفون. وكما نقول في "أسيني": "كل العالم يرى ظهر السبَّاح عداه هو".

14 يوليو.. (1). نزل العسكريون المسلحون بخطوات متجانسة إلى الشارع. في نهاية الشارع، يقع ميدان "الكونكورد"، حيث يجلس كل من تعتبرهم الجمهورية شخصيات سياسية غير مسؤولة في هدوء

على منصات. لم يخطر ببال أحد من هؤلاء الأغبياء المسلحين التخلص من الأشخاص في الحكم. مع ذلك، كان هناك سابقة: أنور السادات. يعود ذلك لعام 1981.

في مصر.. تمكنت بنادق جنود الاستعراض العسكري المحشوة بالرصاص الحي من إراحة المصريين من قادتهم خلال استعراض مماثل. فقد السادات وعدد من وزرائه حياتهم. استُبدِل به سريعًا مبارك وحاشيته. اليوم، من خلال، المظاهرات في ميدان التحرير ومسيرة الموتى المدنيين التي صاحبتها بشكل ممنهج، يبدو أن المصريين اختاروا طرقًا أكثر تعذيبًا لتداول السلطة.

14 يوليو.. (2). مسلة الكونكورد تُعتبر قضيبًا منتصبًا، وقوس النصر هو ثقب المؤخرة، و"الشانزليزيه" هو خط الإثارة الذي يربط بين الاثنين. مع وجود العسكريين والشرطيين الذين يتحركون في كل مكان، يمكن القول إن اليوم الجمهورية تستمني.

14 يوليو.. (3). في الواقع، هذا الاستعراض لمعدات الموت لا يثير العجب، المثير للعجب حقًّا هو هذا الجمهور الذي يصفق له.

سوبر حارس.. الملل، الشعور بانعدام الفائدة واستحالة الإبداع، والعدوانية المبالغ فيها، ونقص الخيال، والتعامل كالأطفال، إلخ. كلها أحاسيس مرتبطة بمهنة الحارس. العسكري هو شكل مبالغ فيه من الحارس.

تدريب الحارس. للتدرب، يتعين على الحارس الحصول على تصريح من المحافظة، ومن الضروري أن يحصل على تدريب.

يحصل على شهادة ليكتسب الحق في الوقوف 12 ساعة مقابل الحد الأدنى من الرواتب في سوبر ماركت "فرنبري" أو سوبر ماركت "إي دي"، وتكمن مهمته في منع الأطفال من سرقة بعض مشروبات الكولا.. في الحقيقة، يتمثل هذا التدريب في معرفة المواد من 53 – 73 من قانون الإجراءات الجنائية. كما هو الحال في كل النصوص القانونية، فإن العبارات معقدة وبلاغية فقط لتقول أشياء بسيطة في نهاية الأمر. تتحدث المواد من 53 – 73 عن الجنح المشهودة وتقول ما معناه أنه عندما يُوقَف شخص متلبس بالسرقة، يمكن معاملته كسارق، وأننا علينا أن نركض خلفه. نعم، أيها المواطنون، وفقًا للقانون، نحن جميعًا حراس.

عودة إلى "سيفورا" بـ"الشانزليزيه"

متمردة. تحمل سيدة منتقبة سلة صغيرة بها زجاجة عطر "ليدي روبل"(6) لـ"مانجو".

ثوريون. قرر الكثير من الشباب التونسي، لسعادتهم البالغة بـ"الثورة" التي تفجرت هناك ولسقوط الديكتاتور "بن علي"، بالقفز في البحر المتوسط للوصول إلى فرنسا. تلقى هؤلاء القليل من التعليم ويتحدثون بصعوبة لغة "جمال دبوز" ويهتمون بشؤونهم بأنفسهم، فهم يعيشون في باريس بالطريقة نفسها التي كانوا يعيشون بها في حواري "سوسة" أو تونس العاصمة؛ بين الفراغ والسرقات الصغيرة. قمة الأناقة بالنسبة إليهم أن يرتدوا ملابس كتلك التي يرتديها الشباب الفرنسي في العشوائيات الفرنسية. لكنهم لا يملكون السلوك أو اللغة المناسبة ويمكن تعرُّفهم بسهولة.

أسماهم الحراس بـ"الثوريون"، وهو السبب أحيانًا في بعض الجمل الطريفة التي يكررونها في السماعات.

- انتبه! هناك ثلاثة ثوريين يلفون في قسم المكياج!

- ظهر ثوري في قسم الماركات الكبيرة.

- حاجز أمام الثوري ذو القبعة الحمراء.

- لقد خبأ زجاجة عطر في سرواله الداخلي.

للشجعان فقط. أُوقِف "واحد ثوري" متلبس بالسرقة. وما دام أنه لم يخرج من المحل، فلا يمكن السيطرة عليه أو اعتباره سارقًا. لكن عليه أن يترك بالكامل زجاجات العطر التي أخرجها من غلافها وأن يدفع ثمنها. ثم يأتي بعد ذلك سباق وتتابع سريالي يمشي خلاله الحارس والسارق جنبًا إلى جنب في المحل بهدوء. وبعد عشرة دقائق تقريبًا من هذه اللعبة غير القابلة للتصديق، ينفجر "الثوري" ويطلب بصوت عالٍ وواضح أن يتم توقيفه. كان يخبئ في بنطاله زجاجتين من العطر على شكل قبضة يد ماركة "ديزل" اسمها "للشجعان فقط".

حوار

يقول رجل مخاطبًا الحارس وهو يرسم ابتسامة واسعة متباهيًا بنفسه:

- بهذه البدلة السوداء بالكامل، أنت تشبه "صامويل ل. جاكسون" في فيلم "جاكي براون".

الحارس:

- أنت تقصد بالأحرى فيلم "بالب فيكشن".

- ماذا؟

- "بالب فيكشن".

- لا، "جاكي براون"، الفيلم الذي كانت تمثل فيه فتاة سوداء جميلة.

- "صامويل جاكسون" لم يكن يرتدي بدلات سوداء في هذا الفيلم، سيدي. كان يرتدي سترة مبتذلة لونها أخضر متوهج، وكان يرتدي قبعة ماركة "كانجول" بالمقلوب، أما في فيلم "بالب فيكشن"...

- حقًّا؟ أنت تعرف الكثير عن السينما، أنت؟

واصل الرجل طريقه في الممر غير مصدق.

النمر المرقط. حقائب، بانطلونات، إيشاربات، شيلان، أحذية، أوشحة، فساتين، إلخ... يبدو أن صورة الفهد موضة لدى الكثير من النساء. ملايين من السنين ليتطور ويحصل على فرو لتخفٍّ مثالي في الغابة، اليوم، يُستخدم أكثر من اللازم لجذب الانتباه بأكبر قدر ممكن في المدينة.

"أيها النمر المرقط، القط النبيل، أنت الصياد الأكبر

ترتدي هكذا لتتخفى

في قلب غابتك البكر

كيلا تراك فرائسك

أعلم أن في هذه الأيام، البشريات السيدات

يعتقدن أنهن يستطعن فعل أشياء أفضل منك

يرتدين فستانك فيجرون في الغابة الحضرية

ويصطادون الرجال".

نظرية الارتفاع النسبي لعظمة أسفل الظهر. هناك نظرية تربط الارتفاع النسبي لعظمة أسفل الظهر بقاعدة الكرسي وجودة الراتب. يمكن تفسيرها كالآتي: "في العمل، كلما ابتعدت عظمة أسفل الظهر عن المقعد، انخفض الراتب. بقول آخر: يتفاوت الراتب عكسيًّا بوقت وضعية الوقوف. وراتب الحارس يثبت هذه النظرية جليًّا.

ليليان وبرنار. "ليليان بيتنكور" هي المساهمة الأكبر في "لوريال"، الماركة التي تملك أكثر من 80٪ من ماركات العطور ومنتجات التجميل في "سيفورا".

"برنار أرنو" هو المساهم الأكبر في مجموعة LVMH، مالك علامة "سيفورا" التجارية. وكزوج من الفنانين القدامى، تُحضَّر "ليليان" في المطبخ الخلفي المنتجات التي يبيعها "برنار" في المحل.

فكرة مطمئنة. يُسهِم عمل الحارس، ولو بنسب متناهية الصغر، في ثراء "برنار" و"ليليان".

فكرة محبطة. دون عمل الحارس، لا تتأثر ثروة "برنار" و"ليليان" حتى لو بنسب متناهية الصغر.

فففف. فف! النفخ عن طريق ملء الخدود بالهواء مع العبوس هو الطريقة التي نتبعها لأننا نشعر بالغضب؟ أو لأننا نريد أن نُظهر لمن حولنا أننا غاضبين؟ أو الاثنين؟ على أي حال، هذا ما يفعله بعض الرجال في مدخل المحل قبل أن يتبعوا زوجاتهم داخله.

حواس. في ممر العطور، الإضاءة تكون خافتة.. الغلبة لحاسة الشم.

في ممرات منتجات الزينة، الإضاءة تكون حية.. الغلبة لحاسة البصر.

في كل مكان، الموسيقى رديئة.. الغلبة للصمم.

نطاق تنازلي. في الحواس الخمس "البصر والسمع والشم واللمس والتذوق"، جميعها لها نطاق تنازلي.

وصول عدواني. أحيانًا، يذكرنا أطفال العرب من الخليج عندما يجرون في كل الاتجاهات في كل الأقسام بالطاعون الذي لا يُطاق والمسمى بـ"عبد الله"، ابن الأمير "ابن كاليش" في قصة "تان تان في بلاد الذهب الأسود".

الحارس والأميرة. عندما دخلت هذه السيدة العربية الأنيقة والتي تبلغ من العمر 50 عامًا تقريبًا وهي ترتدي ملابس على الطراز الغربي بشكل كامل، انتشرت شائعة سريعًا بين البائعين والبائعات. الكل يعرفها. أما الحارس، فقد لاحظ أن السيدة يتبعها أضخم اثنين "بودي جارد" رآهما. عندما اقتربت منه ببطء وبدأت تحدثه بالعربية، قطع الحارس أفكاره ليقيّم الخطر المحتمل بسبب وجود الرجلين البدائيين خلفها. بإمكان هؤلاء بضربة بقبضة اليد القضاء على أي صورة حياة داخلية أو خارجية.

السيدة:

- إنه شاب وسيم.

أضاف أحد العمالقة:

- سموها تقول إنك شاب وسيم.

الحارس:

- ...

السيدة:

- يبدو كمن كنت أعرفه منذ فترة طويلة.

الحارس الشخصي:

- تقول سموها إنك تشبه شخصًا كانت تعرفه منذ فترة.

الحارس:

- ....

- خصوصًا مع لحيته الصغيرة.

أضاف العملاق مبتسمًا:

- خصوصًا بلحيتك الصغيرة تلك.

الحارس وهو يتحسس لحيته:

-...

السيدة:

- هل عاش أحد من أقاربه في المملكة العربية السعودية؟

الرجل البدائي الضخم:

- سموها تسأل إذا كان والدك قد عاش من قبل في المملكة العربية السعودية؟

الحارس:

- قل لسموها إن تلال الرمال الوحيدة التي يعرفها والداي هي تلك الموجودة على شاطئ "فيردي" في "أبيدجان" بكوت ديفوار.

الرجل البدائي الضخم مخاطبًا السيدة:

- الرمال الوحيدة التي يعرفها والداه هي رمال الشاطي في الكوت ديفوار.

كشفت السيدة عن أسنانها الجميلة بابتسامة رائعة.

السيدة:

- أنت مضحك مثل رجل كنت أعرفه.

الرجل البدائي الضخم:

- سموها تقول إنك خفيف الظل كالرجل الذي عرفته.

السيدة:

- أشكرك على هذا الوقت الذي تحدثت فيه معي.

الرجل البدائي الضخم:

- تشكرك سموها على قضاء هذا الوقت في الحديث معها.

دخلت السيدة إلى المحل دون أن تنظر حتى إلى الحارس. دولابان كبيران بمرايات يتبعانها.

رئيس الوزراء وابن الرئيس وأموال البترول.

في سماعات الحارس:

"شيخ"، حارس سنغالي:

- الرجل أمام عطور "جيفنشي" هو "عثمان تونر ديانج" رئيس وزراء السنغال السابق.

"سام" حارس كونغولي:

- هل تعتقد أنه سيسرق زجاجة عطر؟

"دجاب"، حارس إيفواري:

- آه آه آه! سنتبعه عن قرب!

"كاكيه"، حارس كاميروني:

- وقرينة البراءة؟

"شيخ"، حارس سنغالي:

- لن يسرق شيئًا. لقد سرق بالفعل ما يكفي لشراء هذا المحل إذا أراد.

"دجاب"، حارس إيفواري:

- هو بطل إذًا في السرقة! لن نبتعد عنه قيد أنملة.

"شيخ"، حارس سنغالي:

- انتشرت الشائعات منذ عدة سنوات حول ابن الرئيس الذي زار السعودية، وأنه حصل على مبلغ كبير من المال نقدًا لسبب لا نعلمه. وبدلًا من العودة مباشرة إلى البلاد، مر بفرنسا. في المطار، اكتشف موظفو الجمارك حقيبة الأموال ووضعوا ابن الرئيس في الحبس الاحتياطي. تدخَّل والده سريعًا ولمنع وقوع أزمة دبلوماسية، أُطلِق سراحه وصُودرت الحقيبة. لم يكن للابن أي وظيفة رسمية، لذا كلف الرئيس، رئيس وزرائه بالحضور إلى فرنسا وإحضار الأموال والاستفادة بزيارة دبلوماسية. عندما عاد رئيس الوزراء إلى البلاد، قال للرئيس إنه فقد الحقيبة بكل بساطة. ولما كانت الأموال لم يكن لها طابع رسمي، كان من المستحيل مسائلته أو طلب توضيح لتجنب تسريب الأمر. يبدو أنه كان يملك مئات المليارات من الفرنك الأفريقي.

"كاكيه"، الحارس الكاميروني:

- وقرينة البراءة؟

"سام"، حارس كونغولي:

- اخرس "كاكيه".

"دجاب"، حارس إيفواري:

- "شيخ"، اترك الخط مفتوحًا!

-"شيخ"، حارس سنغالي: حسنًا، حسنًا، حسنًا. هناك... 4J بقبعة في قسم مستحضرات التجميل!

الحراس في السينما. في آلاف أفلام الحركة والمسلسلات التي أُنتِجت منذ فيلم "وصول القطار إلى محطة سيوتا" l'arrivée d'un train en gare de la Ciotat، لم يكن أي حارس بطلًا. على

العكس، هم من يموتون بسرعة وبشكل عشوائي في خطط الهجوم التي يفعلها البطل للوصول إلى المعركة الكبرى ضد الشرير في المشهد الأخير.

في فيلم "سكار فيس" لـ"برايان دي بالما"، يُعتبر المشهد النهائي للهجوم على منزل "توني مونتانا" المثال الأوضح لمجزرة قتل الحراس في السينما.

ميتسوبيشي. في مدخل المحل، فوق البوابة الكهرومغناطيسية، أمام الحارس، هناك أربع شاشات مثبتة على الحائط، يعرضون عليها باستمرار وفي أربع نسخ متناغمة مقاطع إعلانية لعطور "جورجو أرماني" و"ديور".

إعلانات "أرماني". تصور بطريقة الفيديو، "إتش دي"، السيناريو باهر، بفلاش ولقطات قريبة، إضاءة عالية وخافتة، ديكور صناعي، ظهور بطيء للصور عالية الوضوح، العضلات منحوتة، شفاه ممتلئة، نظرات غامضة، أيادٍ حانية، وقبلة نهائية، كل هذا في فيلم من 23 ثانية يشتمل بالضبط على 18 لقطة.

إعلانات ديور. تصور من خلال فيلم الكاميرا، هناك ضوضاء في الصورة، السيناريوهات كلاسيكية تتبادل فيها اللقطات الواسعة والضيقة، الشفاه ممتلئة، النظرات غامضة، الأيادي حانية وقبلة نهائية، كل هذا في 20 لقطة في فيلم من 23 ثانية.

الشاشات التي تعرض الإعلانات عليها علامة ماركة "ميتسوبيشي" التي كانت تصنع وقتًا طويلًا محركات حاملات الطائرات وطائرات الحروب، تلك الطائرات الشهيرة الموثوقة اليابانية من الحرب العالمية الثانية. كان هناك زمن تصنع فيه "ميتسوبيشي" آلات هدفها الأسمى هو تجنب أن يجتاح اليابان إعلانات "ديور" و"أرماني".

نظرية "باريس سان جيرمان". في باريس، فكل المحال تقريبًا، كل الحراس تقريبًا هم رجال سود، وهو ما يُسلط الضوء على العلاقة شبه الحسابية بين الثلاث محددات: لون البشرة، الموقف الاجتماعي، والجغرافيا (باريس سان جيرمان).

من هذا نستنتج نظرية "باريس سان جيرمان المقيدة" كما يلي: "في باريس، التركيز المرتفع للميلانين في البشرة يؤهلك سالفًا للعمل حارسًا".

لكن في العالم بأسره، المواقف الإدارية والأفكار السالفة، ومستوى التعليم، والعنصرية المعلنة أو المكبوتة، القيود الاقتصادية، إلخ.. هي أمور تفرض في النهاية على بعض الرجال ممن لديهم لون بشرة معين أوضاعًا اجتماعية سيئة للغاية. هذه هي نظرية "باريس سان جيرمان" العامة.

في الغرب على سبيل المثال، كلما ارتفع تركيز الميلانين في بشرتك، زادت فرصتك في شغل منصب اجتماعي أقرب إلى العدم.

"المانوش" هم الاستثناء في هذه النظرية. هم رجال بيض، ولكن ربما تبرَّز أجدادهم في الأماكن المقدسة المسيحية والكاتدرائيات البابوية. وهم بذلك قد أثاروا سلسلة من اللعنات لكل الأجيال التالية لهم. ومن بين عشرات من الأجيال التالية، فإن الغجر هم الوحيدون من البيض الذين تُساء معاملتهم أكثر من الزنوج. فمنحنى تطور مصيرهم الاجتماعي، المثبت على محور الخفافيش، دائمًا قريب جدًّا من الصفر المطلق.

تخفيف الصبغات. كلما ابتعدنا عن باريس، كان لون بشرة الحراس أفتح وأقرب إلى لون الزبدة. في الريف، بعيدًا.. بعيدًا، في أعماق فرنسا، يبدو أن هناك أماكن بها حراس بيض.

البيع بالمزاد العلني. يتلقَّى البائعون والبائعات في "سيفورا" حافزًا على مبيعات المنتجات التي يمثلونها. طوروا جميعًا طرقًا لجذب الزبائن ودفعهم لشراء عطر ما دون الآخر. يكتفي أغلبهم برش العطر على من يصل إلى المحل أو بتوزيع شرائط ورقية مغموسة بالعطر ويقولوا للزبائن كلمة أو كلمتين، جملة على الأكثر.

لكن أحد الباعة يتميز بطريقته.. يبيع العطور بالمناداة بإعطاء نبذة عن محتواها. أسماه الحارس: "المنادي".

تقنية المنادي. هذا هو نص كلام المنادي بشأن "نارسيسو رودريجز، العطر الجديد لهذا الأسبوع":

"من الممنوع أن نمنع...

"نارسيسو رودريجز".

عطر الامتياز، عطر أخاذ، عطر النور

اتركوا أنفسكم لإغراء شهوانية المسك ونضارة البيرجاموت

اتفاق زهري بين العنبر وبلسم الجاوي

"من الممنوع أن نمنع...

"نارسيسو رودريجز".

عطر الامتياز، عطر أخاذ، عطر النور

...جمل ارتجالية"

الأسبوع السابق لذلك، كان يعرض "بلو" من "شانيل" بالنَّص نفسه فيما عدا الجملة الافتتاحية واسم العطر:

"تحت الحصى، الشاطئ...

"بلو" من شانيل

عطر الامتياز، عطر أخاذ، عطر النور

اتركوا أنفسكم لإغراء شهوانية المسك ونضارة البيرجاموت

اتفاق زهري بين العنبر وبلسم الجاوي

"تحت الحصى، الشاطئ...

"بلو" من شانيل

عطر الامتياز، عطر أخاذ، عطر النور... جمل ارتجالية"

الحارس:

- الناس التي تحضر بشكل منتظم لم تكشفك بعد؟

المنادي:

- بالطبع لا. الناس لا تفهم شيئًا ولا تريد أن تفهم شيئًا، هم يريدون فقط الشراء. ما يحبونه هو موسيقى الكلمات. لذا أنا فخور جدًّا بكلمة "بيرجاموت" لأنها ترن جيدًا في الآذان، أليس كذلك؟

باح المنادي بالسر. الأسبوع المقبل، سيكون عند منصة "جافنشي"، والنص سيبدأ كالتالي: "فلنكن واقعيين ونطلب المستحيل..."

دليل الشعارات الستيني سيسمح له بالاستمرار عدة أشهر. لكن سيظل الحارس متشككًا ولا يصدق أن المنادي سيتجرأ ويقول عن "ديور": "لنعلق الجيفة الستالينية" أو لـ"إيف سان لوران": "الفن مات، لا تستخدموا جثته". أو لشركة "كنزو": "الحاجز يغلق الشارع ولكن يفتح المسار".

صفة. الراصد، هي الصفة التي نصف بها من يظل واقفًا.

القبيلة. الحراس، هم قبيلة من يبقون واقفين.

العاهرة والمتحول والمحجبة. في الواحدة صباحًا تقريبًا، تأتي العاهرات المترفات نسبيًّا والمتحولون ممن يقفون في شارع "الشانزليزيه" وفي أرجائه للتعطر وتحسين تبرجهم الصارخ. يتقاسمون الممرات مع السيدات المحجبات، اللاتي يأتين بأعداد كبيرة في هذه الساعة ولا ندري لماذا. نراهن يتحدثن معًا. فعدد الزبائن القليل في هذه الأوقات وغموض الليل يذيبان الحواجز الاجتماعية والأخلاقية والدينية. فالعاهرات والمتحولون سرعان ما سيجدون زبائنهم الذين هم بالنسبة إلى البعض ما هم سوى أزواج هؤلاء السيدات المحجبات اللاتي تشاركن معهن بعض النصائح الخاصة بالجمال.

سارقات إزالة الشعر الزائد. في المحل، تعرض بائعات منتجات التبرج إزالة الشعر الزائد للزبائن. بعد تقديم الخدمة فقط، يدفع الزبائن ثمنها عند الوصول إلى الخزنة. تستفيد بعض السيدات ذات الهيئة المحترمة من خدمة إزالة الشعر، ولكنهن يظللن يتجولن طويلًا في المحل حتى ننسى أمرهن ومن ثَمَّ ينسين الذهاب إلى الخزنة لدفع مقابل الخدمة. هن سارقات إزالة الشعر الزائد. النسيان هو حجتهم المعتادة عندما يُسألن عند البوابة. لدى نساء الحي السادس عشر، تؤدي إزالة شعر الحاجب إلى مشكلات عابرة في الذاكرة.

السارق. بخصل شعره الملونة والمصففة بدقة على جانب الوجه، وقميصه الرمادي الأزرق المكوي بشكل رائع، وبنطلونه الأسود والذي يخلو من أي ثنية ويسقط على حذاء أسود لامع، يشبه هذا الرجل رئيس وزراء بريطانيا بزي غير رسمي. لكن، هناك شيء يفسد هذه الصورة المثالية لأخ الزوج هذا. ليس من الطبيعي أن يرتدي المرء حقيبة ظهر وحقيبة كتف أخرى محمولة خصوصًا وهو يرتدي ملابس توحي بأنه سيقدم عرض "باور بوينت" لمكتب استشاريين في العمران. ثم، هذا الإيحاء بعدم الاكتراث أمام منصة "ديور" اصطناعي قليلًا. كلمة يستخدمها السينمائي. هذا الرجل "مكلَّف" بمهمة ما. وهذا لفظ يستخدمه الحارس. ولكن لم يلحظ أحد أنه فعل شيئًا مثيرًا للشك. والصوت في السماعات يؤكد ذلك: "الوضع آمن بالنسبة إلى...

الذي يرتدي ربطة عنق أمام منصة "ديور". "ديور" هو المنصة الأولى عند الدخول أو الأخيرة عند الخروج. هل سيتوغل J5 أكثر في المحل، أم سيخرج مباشرة؟ أي اتجاه سيأخذ؟ ونظرًا إلى ضغطي على السماعات، فسلوك الحارس الآن هو المثير للشك. كلمة يستخدمها السارق. ظلَّ الرجل حيث كان. بدأ حوار مع واحدة من المسؤولات عن هذه المنصة. ونظرًا إلى بعد المسافة وهذه الموسيقى الصاخبة التي لا تُحتمل، لم يسمع الحارس شيئًا مما يقولون. ضحكت البائعة وبدا الرجل ودودًا. كان تدفق الزبائن

كبيرًا في بداية هذا المساء الصيفي، كان من المستحيل التركيز على رجل واحد. دخلت مجموعة تتحدث لغة ما بلكنة سلافية. هل هم بولنديون، روس، تشيك؟ جميعهم، تغطي أرجلهم طبقة رقيقة من التراب الأبيض. جاؤوا بالتأكيد من متحف اللوفر والتراب من ممرات حديقة "التولوري". هذا هو الطريق للوصول إلى "الشانزليزيه" لمن جاء من اللوفر. عدد كبير من السائحين يأتون سيرًا على الأقدام وصولًا إلى قوس النصر. ماكدونالدز بجانب "سيفورا" هو أحد المحطات الإجبارية بعد مثل هذه المسيرة الرياضية. يطلق النُدَّل عليهم "أصحاب الأقدام البيضاء".

اقتربت سيدة من ذوات "الأقدام البيضاء" من الحارس. يرافقها طفل بدت على وجهه علامات العبوس ويحمل عصا من البلاستيك بها بالون عليه صورة "ميكي ماوس" سعيد. كانت تريد أن تعرف أين المترو. أشار الحارس إليها بإصبعه. "جورج الخامس" تبعد هذه المحطة 50 مترًا وهي المحطة الأقرب. ألقى الحارس ببصره أعلى كتف السيدة ولاحظ الرجل ذو الخصلة البنية. خرج بمحاذاة الحائط المقابل. تلاقت نظراتهما. فهم كل منهما الآخر. بدأت إشارة البداية غير المرئية وغير المسموعة. بدأ سباق هذا الرجل بشكل سريع وخاطف في اتجاه الخروج من الشارع. تأخر رد فعل الحارس. فساعات الوقوف الطويلة تؤدي إلى تيبس المفاصل. كان انطلاقه مُخجِلًا. كان السارق متقدمًا بعشرات الأمتار. ألقى نظرة خاطفة خلفه وأدرك أن الحارس قد بدأ تعقبه. سيكون الأمر أشبه بسباق - تعقب. سباق بالنسبة إلى السارق وتعقب بالنسبة إلى الحارس.

كان الشارع مزدحمًا، والسارق يتسلل والحارس يتبعه. بعد 30 مترًا، بدأ النشاط الحيوي والحركي للحارس يستيقظ وتقاربت المسافات تمامًا. لاحظ السارق ذلك بنظرة ثانية خاطفة خلفه. وبحركة بها تناسق جسدي كبير، خلع الشنطة المعلقة على كتفه وألقاها خلفه دون أن يبطئ من خطواته. هل كان يخفف حمولته أم يضحي، أم الاثنين؟ ولكن الحارس كان قد انطلق. وتوقع هذه الحركة وقفز فوق الحقيبة قبل أن تلمس البلاط الرخامي الناعم لرصيف شارع "الشانزليزيه". استكمل السارق هروبه. والحارس يتبعه، ثم تزداد سرعته. مع هذه الغفائر البشرية، كان لهذا نفس أثر عملية حصد وطحن الذرة في حقل ذرة يوم الحصاد.

مع السرعة والهواء القوي، التفَّت رابطة عنق السارق حول رقبته. والحال نفسه بالنسبة إلى رابطة عنق الحارس. "عندما يركض رجلان يرتديان رابطات عنق في الاتجاه نفسه، فإن هذه الرابطات ستشير إلى الاتجاه المعاكس بتكوين أسهم متوازية مع مسار السباق": خطرت هذه النظرية على ذهن الحارس وكان يفكر في ضرورة تدوينها وهو يحاول اختراق جموع البشر. أصبح الحارس على بعد عدة أمتار وأصبح السارق في متناول يده. قبل شارع "لابواتي" بالضبط، وكان الوضع مثاليًّا. فجأة، تحولت إشارة

المرور إلى اللون الأحمر وأدى ذلك إلى ردة فعل مثيرة للدهشة بالنسبة إلى قواعد المرور؛ توقف تام. إنها مصادفة. الضوء الأحمر هو الذي أضاء داخل رأس الحارس وكان هذا اللون حازمًا أكثر من ذلك الموجود في مفارق هذا الطريق. ما الفكرة من ملاحقة هذا الرجل؟ ماذا لو كان مسلحًا؟ ماذا لو كان مجنونًا؟ ماذا لو كان الحارس قد فقد عقله؟ ما هو نوع الواجب الذي نؤديه عندما يلاحق حارس سارق عطور؟ ما الفكرة من الركض وراء رجل سرق من بوتيك "برنار" - صاحب أكبر ثروة في فرنسا - حلية رخيصة سخيفة أنتجتها "ليليان"، سابع أكثر الفرنسيين ثراءً في فرنسا؟ ما هذا الحماس، وقلة التراجع ووضوح الرؤية! ربما غالبًا عن طريق ذلك يُصاب المرء بمتلازمة "الحارس فلوكو". الحارس الاستيطاني بمطرقته البيضاء وابتسامته الغبية وشاشيته.. الحمراء.

الأحمر. لا بدَّ من التوقف. اختفى السارق بين الجموع. تراجع الحارس. في حقيبته الملقاة، ثلاث زجاجات عطر: "إليكسير" للرجال من "أزارو"، وقود مدى الحياة من "ديزيل"، "إلير" من "ديور".

عندما تتوقف الموسيقى 2. الثانية صباحًا. يغلق المحل.

جيش من الموظفين الجدد يدفعون عربات مملوءة بالمنتجات ويملؤون الممرات والرفوف التي فرغ محتواها خلال النهار. طواقم النظافة يتحركون بأجهزة غريبة على أرض المحل؛ عاملات نظافة على البلاط، وأخريات على السجاد. جميعهم من السود، عمال النظافة (انظر نظرية باريس سان جيرمان المحدودة)، يلتقطون الأشياء ويرتبون ويلمعون وينظفون ويزيلون الأتربة ويغسلون السجاد ويجففون أي سطح مساحته أكثر من 2 سم مربع.

"ديفيد جيتا" و"بلاك آيد بيز" حرروا أخيرًا النظام الصوتي المتخفي في السقف. اليوم، ماتت "إيمي وينهاوس".

عصر الرصاص

في البداية، لم يصدق "كاسوم"، مثل بقية الناس، الصور التي كان يراها. كان يعتقد أولًا أن التليفزيون الصغير المحمول ماركة "هاير" يخرف. الجميع قالوا له ألا يثق بالماركات الصينية، لكن الشيخ الآسيوي كان معه صندوق كامل، وباعه له بـ100 فرنك فرنسي للقطعة في سوق المنتجات المستخدمة في "مونتروي". تليفزيون صغير ملون يسهل حمله يعمل بالبطاريات أو يمكن شحنه بالكهرباء، ومستحيل أن يجد أفضل منه بسبب جودته وسعره. لم يتردد "كاسوم" ثانيةً. لم يندم أبدًا لشرائه ذلك الجهاز الصغير وكان يحبه كثيرًا حتى إنه أعطاه اسم "آية". كان يكفي أن يرفع عصا الهوائي فضية اللون في الاتجاه الصحيح وصورته كانت بالوضوح نفسه لصور التليفزيون الكبير الحديث المصنوع في

أوروبا. عينا "آية" الضيقتان لا تعني بالضرورة أنها عمياء. صحيح، أنه لم ينجح أبدًا في استقبال قناة "فرنسا 2"، و"فرنسا 3"، و"فرنسا 5" أو "آرت". لكن كل هذا غير مهم لأنه حتى إن نجح في استقبال بعض الصور الخاطفة التي تغطيها الثلوج من هذه القنوات، فهي لا تنقل أي شيء جيد. إنها قنوات للـ"ثرثرة المستمرة". خصوصًا "آرت". دائمًا.. دائمًا، رؤوس كبيرة بيضاء تملأ شاشتك وتشحن أذنيك بأحاديث طويلة كالدودة الشريطية. في "كولوس" بمدينة " تراشفيل"، تعلمنا عدم الثقة بـ"كثيري الثرثرة"، لأنهم كانوا دائمًا من أكثر النصابين حنكة. إذا جلست أمامهم، قد يبيعون لك أي شيء وحتى قبل أن تلتفت لذلك، يمكنك أن تفقد حتى ملابسك الداخلية التي ترتديها. "آية" تلتقط جيدًا القناتين المهمتين بالنسبة إلى "كاسوم": 6TF1 & M

لكن، ما الذي أصاب "آية" هذا الصباح؟ الصورة على القناتين واحدة. كما لو كانت الأزرار "1" و"6" لجهاز التحكم عن بعد عالمية يمكنها التنقل بين القنوات جميعها.

بالطبع، هذه القنوات المتشابهة في إغوائها أكبر عدد من "العقول المتاحة" بهدف بث إعلاناتها الكثيرة، كانت تنقل الأخبار من بعضها بعضًا. ولكن إلى هذا الحد، ووفقًا لذاكرة متابع تليفزيوني كبير، هذا لم يحدث قط. على أي حال، في هذه الساعة من بعد الظهيرة، من المفترض أن تعرض لعبة تليفزيونية ومسلسلًا أمريكيًّا على TF1، 6M.

أو ربما العكس، لم يعد "كاسوم "يعرف شيئًا. ربما من وقع الصدمة. بدلًا من ذلك، كل قناة منهما كانت تعرض صورة ثابتة لبرجين توأمين يطلان على مدينة نيويورك. السماء رائعة وزرقاء في هذا الصيف الهندي، وانبعث من أحد هذه المبان الضخمة سحابة دخان سوداء تخرج من قمتها، وبينما هو يتنقل بين زري التليفزيون 1 و6 ليفهم ما يحدث، تساءل "كاسوم" إذا كان قد رأى طائرة تحاول أن تعبر المبنى الضخم الآخر من بين كرة كبيرة من النار. لا، إن "آية" يعبث به. هنا، هنا مباشرة.. لا، إن "آية" يعبث به. لا يمكن أن تكون هذه هي الحرب العالمية الثالثة. مستحيل. يعرف "كاسوم" أن البيض يفعلون دائمًا الأشياء على نحو جيد، وليس على هذا النحو. ليس دون مناقشات في الجمعية العامة، ودون خطابات في منظمة الأمم المتحدة ودون مؤتمرات صحفية، ودون تصريحات علنية ودون التجمعات التي تعطي انطباعًا بأنهم أشخاص متحضرون، قبل أن يبدأوا بالتقاتل فيما بينهم مثل الهمجيين.

بعد عدة دقائق من هذه الهلاوس، تحدَّث صحفي، متدرب سيئ في الأغلب، أشار إلى وجود عدد من الطائرات التي تحلق في أجواء الأميركتين بحثًا عن طرق للهبوط بالطريقة نفسها التي رآها "كاسوم" لتوه في وجه "آية" ذي العين الواحدة. في إستوديو برنامج "لا ين"، استعانوا مرة أخرى بـ"جون بيار برنو" الذي انتهت نشرته الإخبارية للساعة الواحدة ظهرًا منذ عدة ساعات بالفعل. أخيرًا صحفي حقيقي

في القناة. سنحصل أخيرًا على معلومات حقيقية. لن يسع "كاسوم" شكر قناة 1TF على هذه اللافتة. سيتمكن من التخلص من عدم التصديق واللبس في ذهنه.

كان السيد "برنو" هنا، في وقت ما بعد الظهيرة استثنائيًّا، ولكنه هنا بالفعل. وهو ما يعني أن الأمر خطير فعلًا. بدا عليه الحزن والاشمئزاز كما لو كان يعلن أن مجموعة من الهمجيين العرب والزنوج قد ضربت رجلًا فرنسيًّا على المعاش لسرقة مبلغ معاشه الضئيل. كانت بداية "برنو" قوية: "هاجم الإرهابيون العرب أمريكا، بذلك، أصبح العالم المتحضر بأسره متأثرًا بضربات بربرية الإرهابيين العرب...". الوضع كان حقيقيًّا بالفعل إذًا. هذا يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية.

استطاعت مجموعة صغيرة من البشر، مسلحون ببعض الأسلحة الحادة البسيطة، من تعطيل الأنظمة الأمنية، والتخفي من كل أجهزة الاستخبارات وخداع كل الجواسيس وتحولت إلى قنابل تطير في طائرات مدنية يملؤها البشر والكيروسين وهما عنصران طبيعيان متفجران بالفعل حتى بشكل منفصل. الآن، ومباشرة في هذا التليفزيون العالمي، يلعبان لعبة من يحصل على عملية الهبوط الأكثر ابتكارًا والأكثر فتكًا في الوقت ذاته. نجحت مجموعة من هؤلاء الإرهابيين في الإلقاء بطائرة "بوينج" على "البنتاجون"، وزارة دفاع الولايات المتحدة الأمريكية. البنتاجون، بشكل عام، هو أحد أكثر الأماكن أمنًا في العالم.

في فيلم وثائقي على قناة 6M رأى "كاسوم" أنه إذا ما طارت ذبابة فوق البنتاجون دون تصريح موقَّع ومؤشَّر عليه، سيُفتَك بها بمضادات طائرات لها دقة الجراحين. ولكن هنا، هذا الرجل يفعل حركات قاتلة في جراج البنتاجون بطائرة "بوينج" كاملة! إذا لم يكن "جون بيار برنو" موجودًا، لاعتقد "كاسوم" أن كل هذه الحكاية ما هي سوى مزحة سخيفة قالها أناس لا يتجاوز ذكاؤهم ذكاء الأخطبوط. بإمكان شرطة "توجو" كشف مثل هذه المؤامرة دون مجهود ودون أن تكون مجبرة باستشارة "فودونسي" أي كاهن الفودو. "أوفوي بوانيي" بنفسه، هو أكبر مدبر للمؤامرات المزيفة ضد نظام حكمه، كان سيرفض من مستشاريه مثل هذا السيناريو بسبب سوء التخيل.

على الرغم من ذلك، وعلى قناة 1 كما هو الحال في 6، صدر عن مبنيي التجارة الدخان الذي ملأ منتصف الشاشة بدقة 9/16 وتصورها كاميرات "إتش دي برودكاست" لقنوات كبرى مثل كل هذه القنوات الأمريكية المكونة من ثلاث حروف مختصرة: CNN، NBC، HBO، ABC، إلخ.

وكما هو الحال عند وقوع حادث طريق ويحتشد الناس، كان "كاسوم" والكوكب بأسره قد تحولوا إلى مشاهدين غير لائقين لمآسي الآخرين. المشهد الكبير: لوحة سريالية للأبراج ينبعث منها الدخان وسط شبة جزيرة "منهاتن". المشهد الأكبر: سحب هائلة من الدخان الأسود على واجهات المباني المشتعلة.

المشهد الأكثر اتساعًا: تنتشر النار في الطوابق الواقعة فوق حطام طائرات البوينج، في حين يلوح شخص بوشاح أبيض طالبًا النجدة. يقفز رجال يرتدون البدل ورابطات العنق في الفراغ وهم لا يزالون يحملون حقائب أوراقهم.. كان الرعب مخيمًا على المستويات كافة. تزين صوت المعلقين في التليفزيون بكل الصور التعبيرية. نوع التعليقات نفسه التي تتردد عندما يقترب "رونالدو" أو "مارادونا" أو "روماريو" أو "بوتراغينيو" أو "ريفالدو" والكرة بين قدميه من منطقة جزاء الفريق الآخر. هذا تليفزيون الواقع، الواقع المرعب.

كل رؤساء مجلس الإدارة وعاملات النظافة والسعاة والحراس والموزعين والمديرين، كل هؤلاء كان مصيرهم منذ عدة دقائق مختلفًا، أصبح يجمعهم المآل المأساوي نفسه في سجنين متطابقين من النار والحديد والصلب. لم يتوقف "كاسوم" عن الحركة في هذا الكهف الصغير والسخيف، حارس مثير للشفقة وسط الحطام والمباني الفارغة الخاصة بمصنع "جراند مولان " في باريس. وما زاد الطين بلة هو نباح الكلب جوزيف بصوتٍ عالٍ للغاية. في ظل ما يحدث، نسيَ "كاسوم" أن يضع له حصته من الطعام، ولإسكاته، هرول خارجًا بجرعتين من الطعام وهو يعبر سريعًا الساحة التي تفصله عن بيت الكلب الذي بناه بشكل عشوائي، وهو يطلق تنهيدة كبيرة. ملأ "كاسوم" تمامًا طبق الطعام الخاص بهذا الكلب الضخم ثم اتخذ الطريق نفسه بسرعة أكبر ليصل إلى تليفزيونه المنوِّم مغناطيسيًّا. لكن، عندما جلس مرة أخرى أمام "آية"، تغير شيءٌ ما. غطت سحابة كبيرة من الدخان والتراب عدسات الكاميرات. تعرض "آية " للعمى بسبب تركيز مرتفع من الجزيئات الرمادية العالقة التي تتحرك بسرعة الهواء الناتج عن انفجار عدة أطنان من "التي إن تي".

من الفيلم الوثائقي المأساوي بالطبع، ولكن الهادئ نسبيًّا، انتقلنا إلى الأفلام الصيفية والإنتاج الهوليوودي الغزير ذي الاستعراضات الضخمة. فيما عدا أن هنا، اختبأ "بروس ويلز" و"ويل سميث"، وعانى "أرنولد شوارزنيجر" الوهن العضلي. وأمام نظراتهم العاجزة، كان البرج الأول من أبراج مركز التجارة العالمي، في طريقه إلى الانهيار على أقدامه الموحلة وبداخله آلاف الرجال والنساء ممن كانوا يبحثون عن الثروات. بالكاد انقشع الغبار، عندما بدأ البرج الثاني يتهاوى أرضًا في اصطدام لا يُوصف يغطيه صوت امرأة تصرخ "يا إلهي" بطريقة هيستيرية بالقرب من الكاميرا الرئيسية، تلك التي تظهر 3/2 من الأجزاء العليا للبرج الثاني، وهو ما نطلق عليه في المهنة "مشهد أمريكي". لم يترك المصور نفسه للتأثر بالهيستريا الجماعية التي أنتجها ذلك المشهد المذهل. ظل متماسكًا، لم يرتجف، لم يفعل كما فعل المصورون الآخرون الذين تابعوا السقوط المدوي بعدساتهم التي ترتجف وتتراقص تحت الخطوات غير المتوازنة من جراء هربهم من هذا الحدث، الذي ما من بشري، بما في ذلك مواطنو الولايات المتحدة، كان مُعدًّا له. لا، في الواقع هذا المصور جاء من كوكب آخر، فهو لم يرمش وشاشته لم

تتحرك. حتى إن البرج انهار تدريجيًا وخرج من إطار شاشته واختفى ببطء خلف سحابات الغبار الضخمة الناتجة عن انسحاق الطوابق بعضها فوق بعض. الخروج من الشاشة بشكل مهيب؛ هكذا اختفى البرج الثاني.

سخرية القدر تكمن في أن آخر شيء شوهد من هذا البرج هو هوائي التليفزيون الذي يحمله، بكل فخر، فوق سطحه. لم يعرف "كاسوم" بما يفكر. تولَّى "بيرنو" وزملاؤه زمام الأمور. 3000، 6000، 10000.. هكذا بدأت التوقعات الحزينة حول عدد القتلى المدفونين تحت أنقاض البرجين اللذين سقطا للتو. تسارع الخبراء في إبداء رأيهم الحكيم في برامج ارتجالية أعدت من أجل هذا الحدث. مع ذلك، تجاوز الواقع كل السيناريوهات، بل وأكثرها جنونًا. لم يكونوا بالتواضع اللازم للاعتراف بذلك واستمروا في نشر خرافاتهم القلقة. نظرًا إلى استماعه لكل هؤلاء الخبراء في الكوارث بكل أشكالها، قفز "كاسوم " من الرعب عندما سمع صرير البوابة تنفتح عند مدخل "جراند مولان" سابقًا: وقت المناوبة. دخل "أوسيري" وهو يرتدي قميصًا أزرق وبنطلون أسود وحذاءً أسود. وكطفل متحمس للغاية، ركض "كاسوم" للقائه.

ختم "أوسيري" استنتاجه قائلًا: "اعتبارًا من اليوم، لن يصبح للعالم الوجه السابق نفسه. بحد أقصى أسبوع، أنا وأنت لن يكون لنا عمل. على أي حال، ليس مع العم "فردينان". تأثر "كاسوم" بصوته الهادئ وحركاته المطمئنة ونظرته العميقة. استمع له بقدسية شبه تامة. تمتعه بهذا الذهن الصافي في مثل هذه الأوقات! كان "كاسوم" دائمًا مبهورًا بـ"أوسيري". يوم وصوله لـ"نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، كان "جون ماري"، راعي الاتجار في الغرف، هو نفسه الذي فرضه على الغرفة 612 ومساحتها 9 أمتار مربعة وكان ثلاثة أشخاص يسكنون هذه الغرفة بالفعل. كانت نظرة "أوسيري" تائهة ويمكننا بسهولة أن نقرأ في عينيه أنه يتساءل أين يكون. هل هذا المكان غير المحتمل موجود بالفعل في باريس؟ في أي كابوس يعيش؟

رأى "كاسوم" الكثيرين ممن وصلوا تعتليهم النظرات نفسها عندما اكتشفوا نزل الطلاب الإيفواريين في باريس. خصوصًا الذين يصلون مباشرة من المطار. عندما يترك المرء "أبيدجان" ويتوجه إلى باريس، يعتقد أنه ترك النار ليذهب إلى الجنة. كانت هذه هي الصورة الذهنية لكل أبيدجاني، سواء الذي له نية الهجرة أم لا. فبعد كل التضحيات المقدمة، وكل الأموال التي يدفعها للـ"نصابين" المتخصصين في الأوراق الرسمية المزورة وبعد الطوابير الطويلة والمهينة أمام نوافذ قنصلية فرنسا، وبعد الأمسية الكبيرة التي نُظِّمت للاحتفال بتصريح سفر "شينجن" الثمين، وبعد حفلات الوداع والمباركات التي لا

تنتهي.. تصل في النهاية إلى "إل دورادو"، من يتخيل أنه سيوجد في هذه البالوعة البالية غير الصحية والرديئة والمكتظة في قلب عاصمة "ديجول"، هذا المستنقع سيئ الرائحة في قلب "الجنة"؟

استطاع أحد قاطني النُزُل القدامى استقدام ابنته البالغة من العمر 13 عامًا. هو يسكن في جناح النُزُل الذي يتقاسمه مع صديقته وطفليه صغار السن والكلب الذي يستعين به في عمله. أجنحة النُزُل كانت أكبر الغرف به، وبها دورة مياه ومطبخ، وتقترب مساحتها من 16 مترًا مربعًا. وباستخدام بعض اللوحات المصنوعة من الخشب الرقائقي، يستطيع المرء أن يقسم الغرفة إلى غرف صغيرة ليعطي انطباعًا أن هناك صالونًا وغرفة نوم بل وغرفتين: يا لهذا الترف! وبعد أن تجاوزت الفتاة حماس اللقاء وصرخات التلاقي، لم تستطع الفتاة القادمة من "أبيدجان" أن تكتم سؤالها لوالدها عن الوقت الذي سيصطحبها فيه إلى منزله الحقيقي في باريس. انتشرت هذه القصة سريعًا داخل المبنى بأكمله والبعض حدثت لهم تشنجات في البطن من فرط الضحك.

أمَّا "كاسوم" فلم يبدُ أبدًا كشخص وصل حديثًا. عندما يعيش المرء 11 عامًا في "كولوس"، أحد أسوأ الأحياء الفقيرة بين كل أحياء "تراشفيل"، مقارنة به، فإن أي مكان آخر مترف إلى أقصى درجة. كان "كولوس" مجموعة من الزنزانات الصغيرة المتشابكة المصنوعة من الخشب تقع بين السكك الحديدية وقوائم جسر "أوفوي بوانيي" القديم الذي يعبر البحيرة التي تفصل بين "بلاتو" و"تراشفيل". كان للجسر مستويان، في الأعلى تسير السيارات، وفي الأسفل، يمر القطار في نفق طويل من الصلب المسلح. كان القطار الوحيد في البلاد. يسير مرة بالتناوب كل 24 ساعة ويربط "أبيدجان" و"بوبو ديولاسو" ببوركينا فاسو المجاورة.

بدأ الأمر ببناء أكواخ متهالكة من القش تختبئ أسفل الجسر. يسكن فيها البائسون، والمهمشون، والمشردون دون منزل، والمشردون دون منزل دائم، وماسحو الأحذية، والباعة الصغار، والباعة المتجولون، بل وأيضًا أفراد العصابات، والسعاة الصغار للعصابات الكبيرة، والنشالون، والقوادون، والعاهرات رخيصات الثمن، وكل من يعتبر أن نفحات إيرادات الكاكاو الإيفواري انتهت من سنين ضوئية. كل هؤلاء احتلوا نفق القطار شيئًا فشيئًا. بعيدًا عن الأنظار، هذه هي أحد أبشع الأحياء الفقيرة، أحد الأوكار الأكثر تهديدًا للمدينة.

كان الجسر والنفق يحميانها تلقائيًّا من تقلبات الجو، في حين أن في "كولوس"، كان آخر هم الإنسان هو أن يعرف أين سينام أو تحت أي ظروف. كل يوم، كان عليه فقط أن يجد ما يطعمه. إن النوم ليس أسوأ شيء للإنسان لو أن الجوع يعذبه. مقولة "من نام، شبع" الغبية قالها شخص لم يظل مستيقظًا بسبب التلوي من الجوع وصرخات 8 أمتار من الجهاز الهضمي الممتلئ بالهواء. هذا الشخص لم يستيقظ

وسط الليل بدعوة من العقل الخاضع تمامًا لاستبداد المعدة الفارغة التي تأمره وتطلب منه أن يجد شيئًا يأكله بأي طريقة ممكنة. إن ما يهم في "كولوس" ليس أين ستنام، بل ما يهم هو ماذا كنت تفعل في المدينة قبل أن تأتي لتختبئ في هذا الحي الفقير.

جاء "كاسوم" إلى "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" بمقتنيات لا تملأ الحقيبة البلاستيكية لسوبر ماركت «ليدر بريس» التي أعاره إياها ابن عمه. حتى إن كان هناك ثلاث مراتب مفروشة في الأرض بالفعل، فالغرفة ٦١٢ كانت قصرًا بالنسبة إليه. كان يشعر بالحماس والسعادة للعيش في «نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس» حتى تبناه سريعًا زملاؤه الثلاثة في الغرفة وبعض السكان القدامى بالنُزُل. كان «كاسوم» يطلق على الجميع «الأب العجوز». كانت هذه لفتة احترام يهتم بها كل إيفواري. وفي الأحياء الفقيرة، لا يمكن الخروج من المشكلات إلا إذا ضاعفت لفتات الاحترام للـ»قدامى» الذين لا يكونوا بالضرورة الأكبر سنًّا لكن ممن وصلوا المكان قبلك والذين من المفترض أنهم يعرفون أشياءً أكثر منك.

في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، لا يوجد أفراد عصابات أو نشالين، لكن "كاسوم" فهم سريعًا أنه على غرار "كولوس"، النُزُل ما هو إلا "جيتو" آخر. على الرغم من سذاجته، كان "كاسوم" دائمًا ما يسبق الجميع بخطوتين. لم يشتكِ عندما لم يدفع له الغبي الذي يسكن الطابق الثاني - عندما حلَّ محله في العمل مدة أسبوع - فرنكًا واحدًا للعمل الذي فعله. تسلل شيئًا فشيئًا ليؤدي دور صبي المشتريات لـ"جون ماري".. راعي تأجير الغرف وشبه رئيس قاطني المبنى الآيل للسقوط. حتى حانت الفرصة التي ينتظرها يومًا. في "الجيتو"، مثل هذه الفرصة تجعلك مثل الآخرين بالطبع، ولكنها تحدد علامات الاحترام أو المضايقات التي ستستحقها. يومًا ما، أمام حشد من قاطني النُزُل المندهشين، سدد "كاسوم" ضربة رأس ماهرة لرجل "غريب" جاء ليتحرش بأحد السكان. كانت مسألة دَين وهي لا تخصُّه لا من قريب ولا من بعيد. من خلال "ضربة الرأس الجسورة" هذه، كما تُدعى في "كولوس"، لم يفوِّت فرصة أن يُري الآخرين أنه يمكنه أن يلحق ضررًا كبيرًا بأي أحد وأنه الآن أصبح جزءًا من العائلة ويمكن الاعتماد عليه. انتشرت الرسالة كما يجب. كل الأحياء المنغلقة على نفسها في العالم متشابهة. صباح اليوم التالي، عرَّفه "جون ماري" على العم "فردينان" وفي الليلة التالية لذلك، وقف "كاسوم" حارسًا للمصنع المهجور وفي يده كلب ضخم يجره في كل الاتجاهات اسمه "جوزيف"؛ كان هذا هو عمله الأول؛ أول عمل حقيقي في حياته بأسرها.

"انظر جيدًا: الاستشعار عن بعد، الحراسة الخاصة، حراسة نقل الأموال، المواقع الحساسة، التقنيات المتطورة لمنع الحرائق، المحطات النووية، الهياكل الضخمة، إلخ.. كل ما هو متعلق بالأمن مربح من الناحية الاقتصادية، ومعقد من الناحية الفنية، ويُترك للبيض. سرقات المحال أو مواقع البناء، ومنع

وضع اليد على مكان ما، وتسجيل الدخول والخروج، وملاحظة التغيرات على شاشات المراقبة، ضمان وجود رادع ما، والإمساك بالحواجز خلال الحفلات الموسيقية أو الأحداث العامة، إلخ.. كل هذا غير معقد في الواقع. لكن بالنسبة إلى المكاتب الكبرى، يحتاج ذلك إلى عدد إضافي من العاملين، وتأمينات إضافية، وضرائب إضافية، ولوجستيات إضافية. باختصار، سيحتاج إلى الكثير من المشكلات الإضافية وإلى كمية قليلة للغاية من المال الإضافي. لذا فُرض التعامل من الباطن نفسه سريعًا وبشكل مكثف من أجل الاستمرار في جني الأموال وتوكيل الآخرين بالأعمال. إنها الرأسمالية البحتة. هذه الأشياء البسيطة في تنفيذها يمكن تركها للزنوج. بالإضافة إلى ذلك، وفي حالة الحاجة إلى عدد كبير من الأيدي العاملة، يمكنهم بكل بساطة تعبئة "إخوانهم". هذه ليست عنصرية والأمر لا يتعلق بلون البشرة. إنها مسألة أموال يا زميلي. بذلك بنى العم "فردينان" وكل الإيفواريين القدامى في باريس الشركات التي يطلقون عليها جزافًا اسم شركات أمن. "كاسوم"! كل هذا النظام استمر لأنه في الواقع لا يوجد شيء لمراقبته. حتى اليوم، وجود بسيط لزنجي واحد في المكان يعطي شعورًا بأن الموقع آمن.

الشعور، "كاسوم"، الشعور، نحن فقط ندير الشعور بالأمن.

لكن في ظل ما يحدث في نيويورك، أؤكد لك أن البيض سيستعيدون زمام الأمور. سيكون هناك من الآن فصاعدًا شيئًا حقيقيًا يجب مراقبته.. عناصر غريبة يجب وقفها، ومواقع يجب تأمينها بشكل احترافي. أصبح الشعور بانعدام الأمن أكبر من الأبراج المتهاوية نفسها. لذا يجب فعل الكثير لسد هذا الشعور. على أي حال، أكبر من مجرد وجود زنجي، من الآن فصاعدًا، ستصبح متطلبات الوظيفة أكبر لكي تتمكن من الحصول على العمل. سيدققون أكثر في أوراقنا قبل أن يسمحوا لنا بالوقوف أمام أي بوابة لعينة.

"كاسوم"، سيغرق الكوكب بأسره في عصر "البارانويا"؛ زمن تأمين كل شيء. اعتبارًا من هذا اليوم، لن يكون للعالم الوجه ذاته. أقول لك دون أي خطأ إنه خلال شهر بحد أقصى، أنا وأنت لن يصبح لدينا أي عمل. على الأقل، ليس مع العم "فردينان".

تذكر "كاسوم"، سارت كل الأمور كما قال "أوسيري". تمددت ساعات الفراغ حتى اختفت تمامًا. وبعد عدة أشهر، لم يعد يرى سيارة العم "فردينان" موديل 205 التي كانت تصطحب الموظفين الخصوصيين في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس". أصبح لكل شركة أمن تصريح خاص من مرفق الشرطة لمواصلة مزاولة هذه المهنة. حتى بالنسبة إلى وظيفة حارس أمن، ولكي يفعل ما فعله "كاسوم" دون أي مشكلة لمدة سنوات، والآن أصبحت هناك حاجة إلى استخراج تصريح من الشرطة وذلك لا يتم إلا بعد فحص أوراق الإقامة وتقديم صحيفة الحالة الجنائية خالية تمامًا من الجنح. اعتقد الذين اعتادوا العمل مع

العم "فردينان" أنه سيحصل سريعًا على هذا التصريح الشهير وأن الأمور ستعود كما في السابق. على الرغم من ذلك، من لم يعملوا معه أبدًا أو من طردوه لسبب أو آخر أكدوا أن "فردينان" كان قد قدم الأوراق منذ زمن بعيد، ولكنه يكذب بطريقة باهرة بشأن هذا التصريح الخاص بالعمودية. كل هذا حتى لا يدفع رواتب من يُفترض أن يدفع لهم. انتقلت المأساة إلى الإخوة والأخوات وأولاد الأعمام لا سيَّما بعد انتشار إشاعة أن كل سكان "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" سيُطردون. من عاشوا فيه منذ زمن بعيد، قالوا إنهم شهدوا الكثير. اعتقدوا أنه لن يحدث شيء كما جرت العادة وأنه ما من شخص سيتجرأ ويُخرج كل هذه الأسر في قلب الشتاء من النُزُل. من لم يعيشوا في المكان منذ زمن بعيد، لم يُكذِّبوا القدامى، ولكنهم كانوا يبحثون خفية عن مكان إقامة آخر، من يعلم ماذا سيحدث غدًا!

في باريس، "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" ونُزُل "بونيا" وبعض الأحياء الفقيرة الأسطورية للجالية الإفريقية أُخليت بالقوة رغم الاحتجاجات المعتادة للجمعيات اليسارية وكل المنظمات المهنية للدفاع عن المقهورين والمهمشين. الأشخاص الجدد كانوا واضحين بشكل أكبر وأكثر استسلامًا، لكنهم انتبهوا لكيلا يظهروا ذلك أمام الآخرين.

في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، كانت الإشاعات إما نصفها حقيقية وإما نصفها كاذبة، ولكنها على أي حال كانت متعددة وخيالية نظرًا إلى أن الفراغ كان كبيرًا. عندما يندر عمل الحراس في المدينة، يخلو "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" من العاملين، لذا تنتشر هذه الإشاعات انتشار النار في الهشيم. وكما هو الحال في كل الأحياء الفقيرة في العالم، نادرًا ما يتنقل سكان النُزُل.. يبقون دائمًا في منازلهم منغلقين على بؤسهم الخاص غير قادرين على التنزه بحرية فوق الجسر؛ هذا هو مأزقهم الحقيقي. ما من حائط وما من سجن يمنعهم على أرض الواقع. كان ميدان "إيطاليا" ومقاهيه المتعددة على بعد دقيقتين سيرًا، ويقع حي "تل أو كاييه" بباراته الشهيرة على بعد خمس دقائق. وحدائق "بريسي" على بعد ثلاث محطات مترو. حتى الساحة الكبيرة لمستشفى "بيتيه - سالبوترييار" كانت على بعد خطوتين من "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" ومناظرها الخلابة، لكنَّ قليلين جدًّا كانوا يكلفون أنفسهم عناء جولة بها.

لكن لدى أغلب البشر، في "الجيتو"، سواء كان الفرد غنيًّا أم فقيرًا، يضيق الأفق، فالمكان يبني حواجزَ في الذهن. سار كل شيء كما لو أن اعتياد الخروج من "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" سيجعل المرء يخاف اعتياد الكثير من الأمور الجيدة والعادية أو الأشياء البسيطة؛ كمدخل عمارة نظيف أو مراحيض منظفة جيدًا أو طارد مياه يعمل جيدًا، أو سلالم منتظمة وحوائط بلا خدوش، وغياب تام للصراصير والفئران، وحاويات قمامة تُفرَّغ بانتظام.. "يعرف كاسوم متلازمة الجيتو جيدًا".. إنه الأسوأ

في الفقر؛ يعتاد سكانه الحرمان". جرب ذلك ويعرفه جيدًا في "كولوس". لن يعيد الكرَّة في باريس. كان يشاهد "أوسيري" وهو يخرج كل صباح ولا يعود إلا متأخرًا في أثناء الليل. قرر أن يحذو حذوه.

قرر زيارة الأقسام المجانية من متحف "اللوفر"، وزيارة معرض صور في منزل غريب بـ"سان بول"، وهو ليس ببعيد عن ميدان "الباستيل"، نزهة لا تنتهي بطول قناة "أورك"، وجولة في مقبرة "بيير لا شاز"، وزيارات متعددة لرجال ونساء من البيض بدوا – ظاهريًّا – أصدقاءً له، وسهرة في الحي الثامن عشر، على بعد خطوتين من سوق الزنوج في حي "شاتو روج"، وزيارة لرجل من جزر "الأنتيل" يتجمع لديه أناس من كل الجنسيات والألوان الممكنة، والعديد من الحفلات الموسيقية الصغيرة المجانية في بارات حي "بيلفيل"، واحتساء القهوة في المقاهي حيث يتحدث إلى أناسٍ لا يعرفون أنه قادم من "كولوس" بحي "تراشفيل"، والتردد على مكتبة صوتية بها أسطوانات لموسيقى أفريقية يتجاوز عددها ما يوجد في كل "أبيدجان"، وملهى ليلي في حي "الباستيل" كان كل الحراس به لصوصًا قدامى في حي "أبودو"، فضلًا عن حضور مسرحية في مسرح صغير للغاية في حي "منيل موتون".

قام "كاسوم" وهو يتبع "أوسيري" بأشياء لا تُصدق. في أربعة أسابيع، زار أماكن أكثر، وفهم ثقافات أكثر وقابل المزيد من الأشخاص، وتعلم أكثر مما تعلمه في أربعة أعوام من إقامته في فرنسا، حبيس "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس". في أربعة أسابيع، عرف "كاسوم" أنه لم يكن فقط في بلد غريب، بل أدرك أنه بالفعل قد سافر. أوضح له "أوسيري" أنه يعيش في ثقافة مختلفة، في عالم مختلف، بما فيه من مواطن جمال وقبح، بما فيه من ثغرات بلا نهاية وقمم بارتفاع الهيمالايا، كما هو الحال في أي بلد آخر. أثبت له "أوسيري" إلى أي مدى هو ثري لمجرد أنه سافر. كان يقول له: "كاسوم، مجرد أنك هنا يعني أنك أصبحت رجلًا أفضل، أفضل ممن يعيشون في "كولوس" ولن يعرفوا باريس أبدًا، وأفضل ممن يعيشون في باريس لأنهم لن يعرفوا كولوس أبدًا".

بعد ظهيرة أحد الأيام، وبينما هما يسيران في شارع "لوبيتال" في اتجاه نهر "السين"، طلب منه "أوسيري" أن ينظر إلى السماء. في البداية، لم يرَ "كاسوم" شيئًا، لكن "أوسيري" أصرَّ. شعر "كاسوم" بالسخف عندما توقف هكذا على الرصيف ورفع رأسه للنظر إلى السماء الزرقاء الخالية من السحب. زرقاء وخالية من السحب. زرقاء، السماء كانت زرقاء. بدا ذلك عاديًّا، لكن "كاسوم" فهم ما يريد "أوسيري" أن يرى. في "أبيدجان"، لم تكن السماء أبدًا زرقاء؛ كانت دائمًا مليئة بسحب كثيفة بلون رمادي متدرج وداكن بشكل أو بآخر. الهواء، هذا الراعي الخفي، كان يقودها ويتمايل بها هنا وهناك حتى تزداد كثافة وتنتفخ وتصبح تكتلات ضخمة وكثيفة لونها رمادي يميل إلى الأسود حتى تصطدم

بالأرض في صورة أمطار استوائية عنيفة. هذه القبة الزرقاء المتكونة فوق محطة "أوسترليز"، هذا اللون الأزرق العميق الذي انتشرت به خطوط بيضاء بسبب الطائرات.. اكتشف "كاسوم" كل هذا.

اكتشف "كاسوم" أيضًا "أوسيري". ذلك الفتى الخجول والمتحفظ في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، والذي لا يمتُّ بأي صلة إلى النجم اللامع والكريم الذي ساعده في اكتشاف باريس. جعله يرى حياة من وجهة نظر أخرى غير تلك الخاصة بالمهاجر غير الشرعي الذي يشعر دائمًا بالخوف من فكرة تفتيش الشرطة المفاجئ. الكل في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" كان يسخر من العادات الغريبة والمقدسة لديه. يغسل يديه طوال الوقت، ثم إنه ينظف الحمامات ودش الاستحمام. كانت لديه حاوية قمامة صغيرة خاصة به اعتاد أن يفرغ محتواها في الحاويات العامة بالشارع. يستيقظ قبل أي شخص ويطوي مرتبته ويضعها في ركن من الأركان، ويخرج بحقيبة بها كل أدواته الخاصة! انتشرت إشاعة مفادها أنه كان من المؤكد صبيًّا لرجل أبيض مهووس بالنظافة في "أبيدجان"، لذا فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من التنظيف طول الوقت.

لكن فوق كل هذا، كان هناك شيء لم يفهمه أحد بشأن "أوسيري"، وهو الاحترام؛ بل التقدير الذي أبداه له البومة العجوز غير الأمين المدعو "جون ماري". لم يرفع صوته أبدًا وهو يطلب منه الإيجار وكان لا يتحرك إلا من وقت إلى آخر، فـ"أوسيري" كان يضع مرتبته في قاعة الدراسة القديمة. وهذه القاعة، كانت ذات نفع مادي كبير بالنسبة إلى "جون ماري". كان يؤجرها لجميع أنواع الاحتفالات الاجتماعية، لكنها كانت تؤجر خصوصًا للجنازات الخاصة بجماعات "البيتيه". بالنسبة إلى هذه الجماعات، كانت الجنازات أفضل من الاحتفالات الاجتماعية الأخرى، بمعنى أنه إذا مات واحد من "البيتيه" على الكوكب، فهناك دائمًا أخ أو أخت أو ابن أو ابنة أو حتى أحد الأقارب غير المباشرين، ينظمون له ليلة جنائزية واحدة على الأقل. بشكل عام، يكون ذلك يوم الجمعة أو السبت بما يلائم أوقات العمل الحديثة. وخلال هذه الأمسيات، هناك أموال تصل إلى مبالغ كبيرة تُجمَع وتُقدَّم لأحد ممثلي عائلة المُتوفَّى. هذا يعني أنه في حياة المهاجرين "البيتيه" الصعبة في باريس، فقدان أحد الأقارب لم يكن بالضرورة خبرًا سيئًا.

تنظم جماعات "البيتيه" في باريس كل الأمسيات الجنائزية في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس". كان إيجار القاعة مقبولًا، وما من إيفواري يسكن هذا المبنى القديم يشتكي الضوضاء التي تحدثها هذه الجنازات التي ينظمها "البيتيه".. ثم إنهم كانوا جميعهم – تقريبًا - لا يحملون أي أوراق إقامة رسمية. ما من أحد يجرؤ على أن يتصل بالشرطة بسبب الإزعاج الليلي، لذا فمن البديهي أن يزدهر عمل "جون ماري". فقاعة الدراسة تلك كانت المكان الوحيد المُعتنى به في هذه البالوعة المسماة بـ"نُزُل الطلاب

الإيفواريين في باريس". لذا فقد احتفظ بحالتها بكثير من الحرص. وهو السبب الذي جعل الجميع يتعجب من أنه لا يقول شيئًا لـ"أوسيري" إذا ما لجأ إليها لينام.

في باريس، في الوقت ما بين 1 نوفمبر وحتى 31 مارس، كان ممنوعًا طرد أي مستأجر أمين أو غير أمين، إذا كان يسكن بشكل قانوني أو غير قانوني، أو إذا كان يقيم بشكل دائم أو لا؛ أي إنه لديه مرتبة وغطاء. لم يعرف "أوسيري" إذا كان ذلك مجرد عرف أو قانون نابليون المدني الذي يدير حياة الفرنسيين وكذا المستعمرات القديمة في العالم، بما في ذلك كوت ديفوار. كان يشرح لـ"كاسوم"، أن هذه المدة هي بمنزلة هدنة إنسانية فرضتها ظروف الطقس، فالكل يعرف حتى "تيناردييه" عم "كوزيت" بطلة البؤساء، الشرير، الذي كان يعرف أن النوم في العراء والموت من البرد ليس أمرًا مضحكًا.

وصل إشعار إخلاء كل قاطني المبنى 150 شارع "فانسان - أوريول" في شهر مارس. نهاية الشتاء، جغرافيًّا، هو 21 مارس. بكلمات شديدة اللهجة، أمر إشعار الإخلاء الجميع بترك المبنى قبل 31 مارس، النهاية الإدارية لفصل الشتاء. إذا لم يُخلَ في هذا التاريخ، فالإشعار حدد الطرد بالقوة في 1 أبريل، اليوم الأول بعد نهاية هدنة الشتاء. كان الأمر حقًّا جديًّا. عندما وصلت الجمعيات الإنسانية لدعم قاطني "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، كان الجميع يعلم أن هذه المرة طُبِخت الأمور بشكل تام. كل الجمعيات الإنسانية، كجمعية "الحق في السكن" و"مطاعم القلب" و"أطباء العالم"، كلما اقتربت منك، زاد انغماسك في المشكلات. كل أعضائها كان لديهم هذا الشعور المخلص بأنهم يحملون الأمل من خلال انخراطهم المجتمعي فقط. لكن بالنسبة إلى من لا يحملون الأوراق الرسمية وبعض الحالات الاجتماعية الأخرى، فهم يمثلون رموزًا متحركة لفقدان الأمل وصورة واقعية لوضعهم البائس. تبقَّى أسبوع واحد تقريبًا ليجد حلًّا، لكن "كاسوم" فهم أن كل ساكن في النُزُل قد وجد فعلًا صيغته الخاصة من الانسحاب. ولكن قبل عدة أيام من الطرد، حاول أن يظل نشطًا قدر الإمكان "في جبهة المقاومة".

كان لا بدَّ من الإثبات والتوضيح، وبشكل لافت، كيف أنه من الظلم إلقاء سود فقراء لا حول لهم ولا قوة في الشارع. كان لا بدَّ من الهتاف بأعلى صوت ممكن لإيصال سخطه وغضبه.. ويفضل أن يكون ذلك في عبارات جميلة قدر المستطاع. فالصحافة تحب ذلك، أن يُعبَّر عن السخط في عبارات لغوية جميلة. كل هذا يجعل من الكفاح أمرًا لافتًا في الراديو والتليفزيون.

تحوَّل نُزُل الطلاب، بما في ذلك قاعة "جون ماري" بشكل مفاجئ إلى عش لليساريين المتعصبين، ومنتقدي الرأسمالية الأنانية، والمنددين بالظلم الاجتماعي. تحوَّل الجميع إلى ضحية بريئة لخطيئة "سياسة كراهية الأجانب" لـ"حكومة الفاشيين". جذب حجم المبنى المراد إخلائه، وعدد سكانه الكبير، وكثير من الجمعيات الخاصة بهذا الحي، العديد من وكالات الصحافة. بدأت بين سكان النُزُل معركة أخذ

الكلمة من أجل كسب اللقب المرغوب فيه: "المتحدث الرسمي باسم قاطني النُزُل". بمجرد أن يمسك ميكروفون "شور"، "رود"، "سوني" أو "سنهايزر"، وتدار كاميرا محمولة على الكتف عدستها ماركة "زايس" كانت تبدأ معركة المتحدثين الرسميين، بل حرب المتحدثين الرسميين. أُصيب الكل بمتلازمة "م. س. ب".

في نهاية التسعينيات، لجأت مجموعة لا تحمل أوراقًا رسمية إلى كنيسة "سان - برنار" في دائرة 18 بباريس، حتى تتجنب الطرد من فرنسا. لم تجرؤ فرنسا، ابنة الكنيسة الأولى، على تدنيس المكان الذي يُدار فيه كل يوم أحد عادة تقاسم القربان المقدس التي تعود إلى ألفي عام. حدث أن خطرت أفكارًا جيدة لهؤلاء ممن لا يملكون أوراقًا رسمية. حاصرت الشرطة هذا المكان المقدس. وتسارع الإعلام في الحصول على شاهدات ولقاءات شخصية.

خلال مدة الحصار، وجدت الصحافة اليسارية واليمينية على حد سواء سنغاليًّا أليفًا له اسم رقيق وكوميدي ألا وهو "مامادو". كان اسمه الحقيقي "ديوب" ولكن في الواقع أي زنجي اسمه "مامادو". اسم أسهل وأيسر في النطق. كان وسيمًا ويتحدث الفرنسية دون لكنة قوية وبشكل أفضل كثيرًا من أغلب الأميين الذين كان محاصرًا معهم في الكنيسة. أصبح في إمكان فرنسا بأسرها أن تحدد وجهًا للشخص الذي لا يحمل أوراقًا رسمية، والمهاجر غير الشرعي وغير النظامي. بالطبع، لا الحشد الذي حدث حول هذه القضية ولا العبارات الجميلة التي قالها "مامادو"، كان بإمكانها منع الهجوم الوحشي والمذهل الذي شنته قوات حفظ الأمن ضد الكنيسة. بأمر من رئيس الوزراء "دوبريه"، اقتحم رجال الشرطة أبواب الكنيسة بالقوة. هجوم يليق بالعصور الوسطى. كل من لا يحملون الأوراق الرسمية، والقساوسة، والراهبات، والصحفيون، والجيران المتضامنون، ومناضلو اليسار، والعابرون.. إلخ، كل هؤلاء أُلقِي بهم خارج الكنيسة دون أي تمييز بسبب العِرق لأول مرة. وبعد فرز سهل حسب اللون، جُمِع السود في مكان واحد وأخذوا يصرخون بكل قوة.

كانت محركات الطائرات "الشارتر" لا تزال ساخنة فوق مدرجات الإقلاع بمطار "شارل ديجول"، لذا لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا بالنسبة إلى من لا يحملون أوراقًا رسمية ليجدوا أنفسهم في داكار أو باماكو. لا أحد يعرف إذا كان "مامادو" قد سافر. ولا نعرف أيضًا كيف حصل بعد عدة أشهر على أوراق رسمية. تحولت قصته إلى حكاية خيالية بعد أن جنى ملايين الفرنكات الفرنسية في حكاية غريبة لها علاقة باقتباس اسم موقع رقمي مع شركة "فيفاندي يونيفرسال" Vivendi. ومنذ ذلك الوقت، وعند أي إخلاء مغطى إعلاميًّا، يحلم الجميع بأن يتحول إلى "مامادو"، وهو ما يُطلق عليه متلازمة "م. س. ب "، متلازمة "مامادو سان برنار".

بالنسبة إلى هذه اللعبة، كان "جون ماري" هو أكثر شخص يخرج منها بأفضل طريقة. لكن يا للأسف، لم يكن الإخلاء مهمًّا للإعلام هذه المرة. ربما كانت هناك أحداث في العالم أو على المستوى المحلي أكثر إثارة. وقبل ذلك بزمن ليس ببعيد، كانت هناك عملية إخلاء لمسكن للأفارقة في "أركوي" فاستُهلِك الموضوع تمامًا. هناك، وقف الممثلون والممثلات المشهورون يدافعون عن هذه "القضية"، وسرقوا بذلك دور البطولة بكل أشكالها من المتحدثين الرسميين الزنوج. أخلت قوات حفظ الأمن "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" دون أدنى صعوبة أو ضوضاء. كانت هناك بعض الصرخات والحركات المعترضة، لكن في واقع الأمر لم يكن أحد قادرًا على الاعتراض بصدق ليكتسب الحق في مواصلة العيش في مبنى متهالك وغير صالح للعيش. منطقيًّا، لا أحد.

قرر "أوسيري" أن يتشارك شقة صغيرة فوق بار "لا شابيل دي لومبار"، وهو ليس بعيدًا عن ميدان "الباستيل". سكن هناك مع "كاسوم"، وهو مسكن حارس الملهى. كان "أوسيري" يعرف "زندرو" من "أبيدجان"، وهذا الرجل كان أشبه بفتوة هذا البار. جمعتهم اشتباكات طلاب المدارس الثانوية كثيرًا. عندما التقى "أوسيري" و"زندرو" مصادفة يومًا ما في الصيف أمام أوبرا "الباستيل"، تذكرا الشجارات المجنونة آنذاك. في الوقت الذي يحرس فيه "زندرو" بوابة "لا شابيل" في الأسفل، كان "كاسوم" و"أوسيري" ينامان في الأعلى، تهدهدهما سماعات الصوت المضخمة العالية. وخلال النهار، يحين دور الحارس في النوم في حين يبحث الاثنان عن عمل يقومان به. لأنه بفضل معارف وأصدقاء "أوسيري"، دائمًا ما وجد "كاسوم" عملًا. كانت فرص العمل تتمثل في نقل الأثاث، تركيب وفك الأسواق، إزالة مخلفات البناء والبستنة، إلخ. أينما أتيحت فرصة عمل، كان "كاسوم" حاضرًا. لكن عندما انتقلت الاعتداءات الإرهابية إلى أوروبا بالقنابل التي دُسَّت في محطة قطارات مدريد، فُتِح المجال من جديد لمهن حفظ الأمن. ومن المفارقة، أن هذه الوظائف أصبحت متاحة لمن لهم وضع إداري مشكوك في أمره مثل وضع "كاسوم". سرَّعت الاعتداءات على الحافلة في لندن من هذه الحركة، المثيرة للمفارقة ظاهريًّا. زادت الحاجة إلى مزيد من الأيدي والأعين لتفتيش الحقائب وحاويات القمامة والتحكم في الوصول إلى الأماكن وفلترة الدخول. عاد "أصحاب الوقوف مدفوع الأجر" من جديد. ولكن ليس من خلال الشركات التي تعمل من الباطن التي يديرها إيفواريون كبار سن في فرنسا. اختفت مكاتبهم جميعًا بسبب نقص الثقة من جانب عملائهم والمتطلبات الإدارية الجديدة. أصبح البيض هم أصحاب الأعمال، وهم الذين بإمكانهم الحصول على عقود وتصاريح مزاولة العمل. أصبح العمل بروتوكولًا بسيطًا ولا يتغير: صوت في سماعة الاتصال الداخلي، نظرة إلى شاشة التحكم الخاصة بكاميرات المراقبة، الضغط على الزر، صوت القفل، فتح البوابة، رجل أو سيدة دائمًا على عجلة من أمرهم، إلقاء تحية الصباح سريعًا، حقائب وأدوات معدنية في حاوية من البلاستيك تمر على السير المعدني المتحرك، مرور الرجل

أو السيدة المتعجلين من البوابة، مرور الحاوية البلاستيكية بالحقائب والأدوات المعدنية في جهاز الأشعة السينية، نظرة إلى الشاشة الخاصة بجهاز الأشعة السينية، يستعيد الرجل أو السيدة المتعجلان أشياءهما من الحاوية البلاستيكية، وينطقان بالشكر المسموع بالكاد، ثم يسرع الرجل أو السيدة المتعجلان للغاية عبر الساحة في اتجاه المصعد الكهربائي، ثم يأتي العابر التالي...

يجلس رجل في مكتب صغير مضاء بالنيون الأبيض. من خلال نافذة زجاجية محاطة بإطار من البلاستيك بلون الخشب، يستطيع هذا الرجل إلقاء نظرة على البوابة وعلى بوابته شخصيًّا. من المفترض أن هذا الزجاج مضاد للرصاص، حسبما قال المُصنِّع.

في وسط هذه النافذة الزجاجية المستطيلة، هذا الرجل - الذي لا نرى سوى رأسه وجزئه الأعلى - هو "كاسوم". يرتدي سترة سوداء وقميصًا أبيض ورابطة عنق سوداء. في هذا المحيط البارد والمجرد، بدا كعنصر ديكور مصمم بخطوط نقية بسيطة على طراز "باوهاوس". هو أشبه بالزينة التفاعلية، لأنه يرد بابتسامة كبيرة على تحية الصباح التي يلقيها الرجال أو النساء المتعجلون للغاية. ويرد أيضًا على "شكرًا" بعد فتح البوابة من الجهة الأخرى. لا يفوِّت "كاسوم" أبدًا فرصة الرد عليهم بصوت عالٍ وسخيف بجملة "نهارك سعيد" وهم يهرولون بالفعل نحو المصعد الكهربائي. نادرًا ما تصدر البوابة إنذارها العالي أو يشير جهاز الأشعة السينية إلى وجود شيء غريب في الحقائب الكثيرة التي تمر عبرها طوال اليوم. لكن عندما يحدث ذلك، يضغط "كاسوم" زرًّا لينبه "مقر القيادة"، هذا المقر المعروف والذي يقع فوق رأسه مباشرة. هذا هو حقًّا التدرج الوظيفي.

بعد أن يضغط الزر، يظهر موظف فجأة، كما لو كان مسحورًا.. تسبب الصدمة اختلالًا للتوازن. يُعزل الشخص المشتبه به سريعًا، حتى لو كان ملك ليسوتو أو ملكة إنجلترا شخصيًّا، في غرفة صغيرة للتفتيش في حين يواصل الرجال والسيدات المتعجلون للغاية الدخول كما لو كان كل شيء يسير بشكل طبيعي وكأن شيئًا لم يحدث. لا يملك الرجال والسيدات المتعجلون للغاية وقتًا ليهتموا بشخص أحمق نسي حاملة مفاتيح في جيبه قبل أن يعبر البوابة المغناطيسية. على الرغم من ذلك، ربما يكون هذا الشخص إرهابيًّا يحاول أن يخفي سلاح كلاشينكوف في سرواله الداخلي. أحد هؤلاء المتعصبين المتطرفين، ويُفضَّل أن يكون من العرب المسلمين، متعطش للدماء الطازجة للأبرياء الغربيين الذين يعملون في إحدى أكبر الشركات التي تعمل في مجال الطب الحيوي في العالم. بالنسبة إلى الرجال والسيدات المتعجلين للغاية، لا فرق بين الشخص المتشتت والإرهابي. لا وقت لديهم للتفكير في هؤلاء الذين يتسببون في إطلاق أجهزة الإنذار. لذا ولتجنبهم كل هذا، تدفع الشركة كل عام الكثير للحراس ولأجهزة الأمن الباهظة.

يجلس "كاسوم" في مكتبه، لذا يستطيع الرجال والسيدات المتعجلون للغاية مواصلة السير كل صباح. "كاسوم" لا يرى سوى "من يدخلون". الكل مجبر على المرور من هنا والالتزام بإجراءات الدخول. لذا فذروة النشاط، تكون بالنسبة إلى "كاسوم" خلال الصباح، أما خلال باقي اليوم، فهو يجيب على عدة مكالمات من خلال تليفون معقد للغاية مليء بالأزرار، لا يجيد سوى ثلاث وظائف فيه: رفع السماعة، وإغلاق السماعة، وتحويل المكالمات. قبل وظيفة مراقبة "الدخول"، هناك وظيفة مراقبو "الهويات" لمراقبة وتسجيل بطاقات الهوية. يوزعون البطاقات على الزائرين، ومن هنا جاء الاسم الذي أعطاه لهم "كاسوم": "مراقبو البطاقات". من الجانب الآخر من القاعة الكبرى للدخول، هناك مكتب "للخارجين" من المكان. فالمكاتب عدَّة والإجراءات معقدة. اقتسام العمل. كلما كان الموقع حساسًا، أصبحت الوظائف أكثر، وإجراءات الدخول أكثر تعقيدًا. لذا، لا مكان هنا للمبادرات الشخصية والمهارة. قبل فعل أي شيء، هناك سلسلة من التعليمات والأوامر ومصدري الأوامر. في المواقع الحساسة، يكون عمل الحارس دائمًا هادئًا. إذا لم يكن هناك كمين في كل الممرات والمكاتب بأشكالها كافة، لكان هناك مجال لعمل "كاسوم". على أي حال، هذه هي الوظيفة الأكثر هدوءًا التي حصل عليها منذ العصر الجميل لمصنع "جراند مولان" في باريس.

أخرجه الصوت العالي لإنذار كاشف المعادن من أحلامه. كانت سيدة متعجلة جدًّا جدًّا وتبدو مؤهلة للمرور إلى غرفة التفتيش. عندما نظرت إليه بنظرة متعجبة، بدت عيناها الخضروان وكأنهما يلتمسانه العذر. لون عينيها أخضر كلون عيون زوجته. هي حامل أيضًا كزوجته. زوجته الجميلة "إميلي" التي ستلد له طفلًا خلال أسبوعين. هم يعرفون سالفًا الاسم الذي سيعطيانه للطفل. لن يطلق "كاسوم" إنذار التنبيه هذه المرة. أشار بيديه للسيدة المتعجلة جدًّا جدًّا لتواصل السير. ربما يرتكب بذلك خطأ مهنيًّا خطيرًا للغاية، ربما بذلك قد أدخل إرهابية خطيرة ببطن غير حقيقية مليئة بمتفجرات "الـC-4"، المادة المتفجرة المفضلة لدى الإرهابيين الغربيين. في آخر يوم لعمله حارسًا، لن يجتهد "كاسوم" كثيرًا. بعد سبع سنوات من العيش في فرنسا، لديه موعد غدًا في مخفر الشرطة. غدًا، ربما سيحصل أول مرة على تصريح إقامة. ربما!

الخاتمة

قطع "أوسيري" وعدًا لـ"كاسوم" بأنه منذ اليوم الأول الذي يحصل فيه على أوراق رسمية، سيتوقف عن العمل في "الحراسة". قال له في أحد الأيام بكل بساطة: "لم أرك بهذه السعادة إلا عندما عملنا مع البستانيين". بعد يومين، خرج "أوسيري" ولم يعد. لا يتصل أحد بالشرطة ليبلغ عن اختفاء رجل لا يحمل أوراقًا رسمية. لم يفعل أي شخص أي شيء للعثور عليه عدا طرح بعض الأسئلة على الأشخاص

المقربين. هنا، هو لا يمثل شيئًا قيّمًا لأحد وهو نكرة بالنسبة إلى الجميع. سرت إشاعة مفادها أنه عاد إلى "أبيدجان". أكد قريب شخص كان يسكن سابقًا في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس" أنه رأى "أوسيري" في أدغال حي "أدجوفو" الفقير الذي يقع عند منصات هبوط مطار "فيليكس أوفوي بوانيي" في "أبيدجان". "أوسيري" في "أدجوفو"؟ لم يصدق "كاسوم" هذا الأمر. كيف عاد إلى "أبيدجان"؟ هل رُحِّل؟

لا يركب "أوسيري" المترو من دون أن يدفع. صحيح أنه كان يحكي كثيرًا عن حلم جنوني متكرر حول "الاقتياد إلى الحدود"، حلم مليء بالزهور والغناء الكورالي. لكن "أوسيري" كان لديه الكثير من القصص المجنونة لكل أقسام "سيفورا" بشارع "ديجول". ثم إن الكل يعلم أنه قبل "الاقتياد إلى الحدود" هناك فقرة السجن. كعقوبة مزدوجة لمن لا يحملون الأوراق الرسمية. فمدمن الهيروين المغتصب والنصاب أو تاجر المخدرات متعدد السوابق، جميعهم كانوا يُعاملون من الناحية الجنائية بشكل أفضل من العامل المطمئن الذي لا يحمل أوراقًا رسمية. كان "أوسيري" يعرف أن "القانون قاسٍ...". لا، لا يمكن أن يكون قد رحل إلى "أدجوفو". لم يرد "كاسوم" أن يصدق ذلك. لكنه كان يشعر فقط أنه ليس عليه أن يقلق، هذه فطرة الحياة في الشارع فالمآسي لها ضجيج أكثر من الأفراح. يومًا ما، بينما يغير "كاسوم" قميصه، اكتشف كلمة كتبها "أوسيري" بخطه المائل للأمام: "دع عمل الصعاليك للصعاليك".

وُلِد "كاسوم" في "تراشفيل" وترعرع في حي "أبوبو"، وتعلَّم في حي "كولوس". جاء إلى فرنسا تقريبًا سيرًا على الأقدام من "أبيدجان". عاش في "نُزُل الطلاب الإيفواريين في باريس"، لكنه هو نفسه من بكى أول مرة من وقع هذه الكلمات.

جوز
GAUZ

"أرموند باتريك جباكا - بريديه" هو اسمي في السجل المدني، وهو الاسم الذي اختاروه لي.

"جوز" هو تصغير لاسم "جوزورو"، وهو طريقة نطق قديمة لسيارة الـ«جباكا» المتهالكة في «أبيدجان»، وهو الاسم الذي اخترته لنفسي.

وُلِدتُ في ٢٢ مارس عام ١٩٧١، في صباح يوم إثنين ممطر، هطلت فيه الأمطار الاستوائية الأولى في موسم سقوط الأمطار. حدث ذلك في المستشفى المركزي بـ«بلاتوه» بـ«أبيدجان»، في حدود الساعة التاسعة صباحًا، وقت التكدس المروري الشديد بالعاصمة.

في الرابعة من عمري، لم يكن أبي راضيًا عن وضعه الاجتماعي فقرر السفر إلى فرنسا مع زوجته؛ أمي وابنه الأخير.. أخي الصغير. عادوا بعد خمس سنوات: كان أبي قد أصبح مصرفيًّا وأمي ممرضة أطفال وأخي الصغير ينفعل كثيرًا من رؤية كل هذا العدد من السود في الشوارع. في غضون ذلك، انتقلت من وصي إلى آخر حتى أصبحت متخصصًا كبيرًا في الانضمام السريع إلى «العائلات ذات الاستخدام الواحد». سمح دخولي إلى مدرسة داخلية كاثوليكية للأولاد بإجادة التقنية الخاصة بي لدرجة أنني تمكنتُ من العيش دون عائلة حتى مرحلة الثانوية عام ١٩٩٠.

في الجامعة، وجهني المرشدون إلى مواد مثل الكيمياء والأحياء والجيولوجيا، في السنة التحضيرية، لكنهم لا يدرِّسون أيًّا من هذه المواد خلالها. كنت طالبًا متميزًا في العامين الأولين، حتى إنني حصلت على منحة لعمل دراسات بيطرية ببلدة "ميزون ألفور". لكن فكرة علاج كلاب وقطط "السيدات العجائز البيض" المتعطشات للحب أثنتني عن تفكيري. شعر المحيطون بي وكُليتي بالرعب من رفضي مغادرة "أبيدجان". فما من أحد يرفض السفر إلى فرنسا، خصوصًا لو كانت كل مصاريف الدراسة مدفوعة! اعتقد الجميع أن السحرة قد ألقوا عليَّ لعنة رهيبة. خصوصًا أنني رسميًّا لم يكن لدي ما أفعله بعد حصولي على الماجيستير في الكيمياء الحيوية.

لكن، بالنسبة إليَّ، عشقت "عدم فعل شيء" خلال الخمس سنوات التي تلت ذلك. خلال هذه المدة، وحتى لا أخيف والديَّ كثيرًا، قلت إنني سأسافر إلى فرنسا لاستكمال دراستي في الكيمياء الحيوية. وكان من المفترض أن أنفذ هذا الوعد يومًا ما. بذلك حصلت على تسجيل بجامعة "باريس 7 جوسيو" Paris 7 Jusseiu وسافرت في أغسطس عام 1999 إلى باريس بفيزا سياحية مدة ثلاثة شهور. أول شيء عرفته عن فرنسا، هو مؤسساتها الإدارية. يمر الوقت سريعًا للغاية خصوصًا عندما ترغب في تحويل فيزا السياحة إلى فيزا دراسة. لذا، سرعان ما تحولت إلى "طالب دون أوراق رسمية"، وهو ما يعني بالنسبة إلى أي موظف إداري مجرد شخص "دون أوراق رسمية" لا أكثر ولا أقل.

دخلت كثيرًا في خبايا الإداريات، وقرأت كثيرًا من نصوص القانون، وقابلت العديد من جمعيات "الدفاع عن الأشخاص الذين لا يحملون أوراقًا رسمية". ولكن عندما حملت المرأة التي أعيش معها، تحولت من شخص وضعه "غير شرعي" إلى مواطن فرنسي في أقل من شهرين. أنا فخور لأنني حصلت على أحد أقصر تصاريح الإقامة في التاريخ.

اعتبارًا من هذه اللحظة، سوف أذكر بشكل عشوائي ما فعلته حتى اليوم، وصنفته إلى ثلاث فئات:

1- العمل كالحمار (للحصول على الغلة).

2- العمل في مجال الفنون.

3- الدفاع عن قضية.

يمكن التخمين لتصنيف الأنشطة التالية. وقد تنتمي بعض الأنشطة إلى العديد من التصنيفات. لذا حذارٍ من الوقوع في الفخ، فكل الفئات ربما تتسم بالتناقض في هدفها.

4 - خدمة عملاء (دعم المستخدمين للبرامج أو الأجهزة المعلوماتية).

5 - فرد أمن في الحفلات الموسيقية الإلكترونية.

6 - محقق لجمع معلومات لإنتاج فيلم في الأوساط الاجتماعية الإيفوارية في باريس.

7 - كاتب سيناريو وحوار لفيلم "بعد المحيط"، للمخرج "إليان دو لاتور". موجود في صورة أسطوانات فيديو مضغوطة في مكتبات وسائط الفيديو المتخصصة (لا سيما لدى مكتبة موجودة بشارع "بارمونتيه" بالقرب من محطة مترو "جونكور")

8 - صحفي لنقل الصور والفيديوهات لمجموعة تنادي بالعولمة البديلة.

9 - مناضل من أجل حرية الإنترنت في أفريقيا.

10 - مصاحب لمن لا يحملون أوراقًا رسمية أمام البلدية.

11 - مستشار لدى المنظمة الدولية للفرنكوفونية بالنسبة إلى السيناريوهات وملفات تمويل الأفلام للتليفزيونات الأفريقية.

12 - جليس أطفال.

13 - مصور لمرشح في الانتخابات الرئاسية بكوت ديفوار.

15 - حارس لدى محل بيع عطور.

16 - مخرج أفلام قصيرة:

Quand Sankara…,

L'année du Piver،

Skully،

Le D3 tu ne traverseras pas

17 – درسات في الفن الحديث وسفريات من أجل كتابة فيلم وثائقي بعنوان:

Mbédé BM, métamorphose d’un reliquaire

18 - بستاني في منازل غرب باريس.

19 - المعلم الروحي لشباب المصورين الإيفواريين.

20 - مصور في مجال الموضة.

21 - رئيس تحرير النشرة الاقتصادية News&co.

(1) تاكسي عام في «أبيدجان»، دائمًا متعطل.

(2) هذا النُزل موجود بشارع «فينسان – أوريول» في باريس ولا يجب الخلط بينه وبين حركة تلاميذ وطلاب كوت ديفوار. يبدو أن للطلاب قدسية كبيرة في هذا البلد.

(3) امرأة برائحة غير مميزة.

(4) رجل حارس برائحة غير محددة.

(5) تُوفيت « ويتني هيوستن» بعد عدة أشهر من كتابة هذه السطور. ولم يرغب «بوبي براون» زوجها في التعليق على الواقعة.

(6) تعني المتمردة.